فى ظلال القرآن

الجزء الخامس عشر

بقلم

سيّد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

فى ظلال القرآن

الجزء الخامس عشر

بقلم

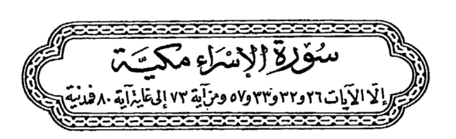
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

من سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

« وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا * وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ؛ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا .

« إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

« وَيَدْعُو ٱلْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولًا .

« وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا * وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً .

« مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيرًا .

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » . .

هذه السورة ـ سورة الإسراء ـ مكية ، وهى تبدأ بتسبيح الله وتنتهى بحمده ؛ وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة ؛ وبعضها عن قواعد السلوك الفردى والجماعى وآدابه القائمة على العقيدة ؛ إلى شىء من القصص عن بنى إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذى كان إليه الإسراء . وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان .

ولـكن العنصر البارز فى كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيـل هو شخص الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وموقف القوم منه فى مكة . وهو القرآن الذى جاء به ، وطبيعة هذا القرآن ، وما يهدى إليه ، واستقبال القوم له . واستطراد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل ، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها . وإلى تقرير التبعة الفردية فى الهدى والضلال الاعتقادى ، والتبعة الجماعية فى السلوك العملى فى محيط المجتمع . . كل ذلك بعد أن يعذر الله ــ سبحانه ــ إلى الناس ، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل « وكل شىء فصلناه تفصيلا » .

ويتكرر فى سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه . ففى مطلعها : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... » وفى أمر بنى إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح « إنه كان عبدا شكورا » .. وعند ذكر دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقوله : « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولـكن لا تفقهون تسبيحهم » . . وفى حـكاية قول بعض أهل الـكتاب حين يتلى عليهم القرآن : « ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » . . وتختم السورة بالآية « وقل الحمـد لله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرا » .

فى تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد الذى بينا ، يمضى سياق السورة فى أشواط متتابعة .

يبدأ الشوط الأول بالإشارة إلى الإسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليـلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » مع الـكشف عن حكمة الإسراء « لنريه من آياتنا » .. وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وماقضى فيه لبنى إسرائيل ، من نكبة وهلاك وتشريد مرتين ، بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة « وإن عدتم عدنا » .. ثم يقرر أن الـكتاب الأخير ــ القرآن ــ يهدى للتى هى أقوم ، بينما الإنسان عجول مندفع لا يملك زمام انفعالاته . ويقرر قاعدة التبعة الفردية فى الهدى والضلال ، وقاعدة التبعة الجماعية فى التصرفات والسلوك .

ويبدأ الشوط الثانى بقاعدة التوحيد ، ليقيم عليها البناء الاجتماعى كله وآداب العمل والســلوك فيه ، ويشدها إلى هذا المحور الذى لا يقوم بناء الحياة إلا مستندا إليه .

ويتحدث فى الشوط الثالث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله ، وعن البعث واستبعادهم لوقوعه ، وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولا آخر ، ويتكلموا بالتى هى أحسن .

وفى الشوط الرابع يبين لماذا لم يرسل الله محمدا — صلى الله عليه وسلم — بالخوارق فقد كذب بها الأولون ، فحق عليهم الهلاك اتباعا لسنة الله ؛ كما يتناول موقف المشركين من إنذار الله لهم فى رؤيا الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتكذيبهم وطغيانهم . ويجىء فى هذا السياق طرف من قصة إبليس ، وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم . يجىء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذى يبدو من المشركين . ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم فى تكريم الإنسان ، وما ينتظر الطائعين والعصاة يوم ندعو كل أناس بإمامهم : « فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

ويستعرض الشوط الأخير كيد المشركين للرسول — صلى الله عليه وسلم — ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة . ولو أخرجوه قسرا — ولم يخرج هو مهاجرا بأمر الله — لحل بهم الهلاك الذى حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلتهم . ويأمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يمضى فى طريقه يقرأ قرآنه ويصلى صلاته ، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ويعلن مجىء الحق وزهوق الباطل ، ويعقب بأن هذا القرآن الذى أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين ، بينما الإنسان قليل العلم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ويستمر فى الحديث عن القرآن وإعجازه . بينما هم يطلبون خوارق مادية ، ويطلبون نزول الملائكة ، ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب ، يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ! أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا . أو أن يرقى هو فى السماء ثم يأتيهم بكتاب مادى معه يقرأونه ... إلى آخر هذه المقترحات التى يمليها العنت والمكابرة ، لا طلب الهدى والاقتناع . ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة ، ويكل الأمر إلى الله . ويتهكم على أولئك الذين يقترحون هذه الاقتراحات كلها بأنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله — على سعتها وعدم نفادها — لأمسكوا خوفا من الإنفاق ! وقد كان حسبهم أن يستشعروا أن الكون وما فيه يسبح لله ، وأن الآيات

الخارقة قد جاء بها موسى من قبل فلم تؤد إلى إيمان المتعنتين الذين استفزوه من الأرض ، فأخذهم الله بالعذاب والنكال .

وتنتهى السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه . القرآن الذى نزل مفرقا ليقرأه الرسول على القوم زمنا طويلا بمناسباته ومقتضياته ، وليتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية واقعية عملية . والذى يتلقاه الذين أوتوا العلم من قبله بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود . ويختم السورة بحمد الله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل . كما بدأها بتسبيحه وتنزيهه .

* * *

وقصة الإسراء — ومعها قصة المعراج — إذ كانتا فى ليلة واحـدة — الإسراء من المسجد الحرام فى مكة إلى المسجد الأقصى فى بيت المقدس . والمعراج من بيت المقدس إلى السماوات العلى وسدرة المنتهى ، وذلك العالم الغيبى المجهول لنا . . هذه القصة جاءت فيها روايات شتى ؛ وثار حولها جدل كثير . ولا يزال إلى اليوم يثور .

وقد اختلف فى المكان الذى أسرى منه ، فقيل هو المسجد الحرام بعينه — وهو الظاهر — وروى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — « بينا أنا فى المسجد فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل عليه السلام بالبراق » . وقيل : أسرى به من دار أم هانىء بنت أبى طالب . والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد .

وروى أنه كان نائما فى بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانىء وقال : « مثل لى النبيون فصليت بهم » ثم قام ليخرج إلى المسجد ، فتشبثت أم هانىء بثوبه ، فقال : «مالك ؟» قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم . قال : « وإن كذبونى » . فخرج فجلس إليه أبو جهل ، فأخبره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بحديث الإسراء . فقال أبو جهل : يامعشر بنى كعب ابن لؤى هلم . فحدثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا ؛ وارتد ناس ممن كان آمن به ؛ وسعى رجال إلى أبى بكر — رضى الله عنه — فقال : أوقال ذلك ؟ قالوا نعم . قال : فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : فتصدقه فى أن يأتى فى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح

قال : نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء ! فسمى الصديق . وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس فطلبوا إليه وصف المسجد ، فجلى له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب . فقالوا : أخبرنا عن عيرنا . فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ؛ وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق . فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ــ لمراقبة مقدم العير ــ فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد شرقت . فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق ، كما قال محمد . . ثم لم يؤمنوا ! . . وفى الليلة ذاتها كان العروج به إلى السماء من بيت المقدس .

واختلف فى أن الإسراء كان فى اليقظة أم فى المنام . فعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت : والله ما فقد جسد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن عرج بروحه . وعن الحسن كان فى المنام رؤيا رآها . وفى أخبار أخرى أنه كان بروحه وجسمه ، وأن فراشه ــ عليه الصلاة والسلام ــ لم يبرد حتى عاد إليه .

والراجح من مجموع الروايات أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ترك فراشه فى بيت أم هانىء إلى المسجد فلما كان فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أسرى به وعرج . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد .

على أننا لا نرى محلا لذلك الجدل الطويل الذى ثار قديما والذى يثور حديثا حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة فى حياة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم ، وبين أن تكون رؤيا فى المنام أو رؤية فى اليقظة .. المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة ؛ ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئا وكونها كشفا وتجلية للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن أمكنة بعيدة وعوالم بعيدة فى لحظة خاطفة قصيرة .. والذين يدركون شيئا من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة لا يستغربون فى الواقعة شيئا . فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التى تبدو فى نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة، حسب ما اعتاده وما رآه . والمعتاد المرئى فى عالم البشر ليس هو الحكم فى تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله . أما طبيعة النبوة فهى اتصال بالملأ الأعلى ــ على غير قياس أو عادة لبقية البشر ــ وهذه التجلية لمكان بعيد ، أو عالم بعيد ؛ والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى والتلقى عنه . وقد صدق أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول : إنى لأصدقه بأبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء !

ومما يلاحظ ـ بمناسبة هذه الواقعة وتبين صدقها للقوم بالدليل المادى الذى طلبوه يومئذ فى قصة العير وصفتها ـ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسمع لتخوف أم هانىء ـ رضى الله عنها ـ من تكذيب القوم له بسبب غرابة الواقعة . فإن ثقة الرسول بالحق الذى جاء به ، والحق الذى وقع له ، جعلته يصارح القوم بما رأى كائنا ما كان رأيهم فيه . وقد ارتد بعضهم فعلا ، واتخذها بعضهم مادة للسخرية والتشكيك . ولكن هذا كله لم يكن ليقعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الجهر بالحق الذى آمن به . . وفى هذا مثل لأصحاب الدعوة أن يجهروا بالحق لا يخشون وقعه فى نفوس الناس ، ولا يتملقون به القوم ، ولا يتحسسون مواضع الرضى والاستحسان ، إذا تعارضت مع كلمة الحق تقال .

كذلك يلاحظ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته ، مع إلحاح القوم فى طلب الخوارق ـ وقد قامت البينة عندهم على صدق الإسراء على الأقل ـ ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد على الخوارق ، إنما تعتمد على طبيعة الدعوة ومنهاجها المستمد من الفطرة القويمة ، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها . فلم يكن جهر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالواقعة ناشئاً عن اعتماده عليها فى شىء من رسالته . إنما كان جهرا بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة :

والآن نأخذ فى الدرس الأول على وجه التفصيل :

* * *

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » . .

تبدأ السورة بتسبيح الله ، أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف ، وأليق صلة بين العبد والرب فى ذلك الأفق الوضىء .

وتذكر صفة العبودية : « أسرى بعبده » لتقريرها وتوكيدها فى مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التى لم يبلغها بشر ؛ وذلك كى لا تنسى هذه الصفة ، ولا يلتبس مقام العبودية ، بمقام الألوهية ، كما التبسا فى العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام ، بسبب ما لابس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التى أعطيت له ، فاتخذها بعضهم سبيا للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية . . وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة ، من قريب أو من بعيد .

والإسراء من السرى : السير ليلا . فكلمة « أسرى » تحمل معها زمانها . ولاتحتاج إلى ذكره . ولكن السياق ينص على الليل « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » للتظليل والتصوير ــ على طريقة القرآن الكريم ــ فيلقى ظل الليل الساكن ، ويخيم جوه الساجى على النفس ، وهى تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها .

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إلى محمد خاتم النبيين ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا . وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعا . فهى رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ؛ وتشمل آمادا وآفاقا أوسع من الزمان والمكان ؛ وتتضمن معانى أكبر من المعانى القريبة التى تتكشف عنها للنظرة الأولى .

ووصف المسجد الأقصى بأنه « الذى باركنا حوله » وصف يرسم البركة حافة بالمسجد ، فائضة عليه . وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل : باركناه . أو باركنا فيه . وذلك من دقائق التعبير القرآنى العجيب .

والإسراء آية صاحبتها آيات : «لنريه من آياتنا» والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى فى البرهة الوجيزة التى لم يبرد فيها فراش الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أيا كانت صورتها وكيفيتها . . آية من آيات الله ، تفتح القلب على آفاق عجيبة فى هذا الوجود ؛ وتكشف عن الطاقات المخبوءة فى كيان هذا المخلوق البشرى ، والاستعدادات اللدنية التى يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة فى أشخاص المختارين من هذا الجنس ، الذى كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة . . « إنه هو السميع البصير » . . يسمع ويرى كل ما لطف ودق ، وخفى على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار .

والسياق يتنقل فى آية الافتتاح من صيغة التسبيح لله : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » إلى صيغة التقرير من الله :« لنريه من آياتنا » إلى صيغة الوصف لله : « إنه هو السميع البصير» وفقا لدقائق الدلالات التعبيرية بميزان دقيق حساس . فالتسبيح يرتفع موجها إلى ذات الله سبحانه . وتقرير القصد من الإسراء يجىء منه تعالى نصا . والوصف بالسمع والبصر يجىء فى صورة الخبر الثابت لذاته الإلهية . وتجتمع هذه الصيغ المختلفة فى الآية الواحدة لتؤدى دلالاتها بدقة كاملة .

* * *

هذا الإسراء آية من آيات الله . وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر .

والمسجد الأقصى هو طرف الرحـــلة . والمسجد الأقصى هو قلب الأرض المقدسة التى أسكنها الله بنى إسرائيل ثم أخرجهم منها . فسيرة موسى وبنى إسرائيل تجىء هنا فى مكانها المناسب من سياق السورة فى الآيات التالية :

«وآتينا موسى الـكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا ؛ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا . وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الـكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا . ثم رددنا لـكم الـكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها . فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ماعلوا تتبيرا . عسى ربـكم أن يرحمـكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للـكافرين حصيراً » ..

وهذه الحلقة من سيرة بنى إسرائيل لا تذكر فى القرآن إلا فى هـذه السورة . وهى تتضمن نهاية بنى إسرائيل التى صاروا إليها ؛ ودالت دولتهم بها . وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها ، وفاقا لسنة الله التى ستذكر بعد قليل فى السورة ذاتها . وذلك أنه إذا قدر الله الهـلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سببا لهلاكها وتدميرها .

ويبدأ الحديث فى هذه الحلقة بذكر كتاب موسى ـ التوراة ـ وما اشتمل عليه من إنذار لبنى إسرائيل وتذكير لهم بجدهم الأكبر ـ نوح ـ العبد الشكور ، وآبائهم الأولين الذين حملوا معه فى السفينة ، ولم يحمل معه إلا المؤمنون :

« وآتينا موسى الـكتاب ، وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا ، ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا » ..

ذلك الإنذار وهـذا التذكير مصداق لوعد الله الذى يتضمنه سياق السورة كذلك بعد قليل . وذلك ألا يعذب الله قوما حتى يبعث إليهم رسولا ينذرهم ويذكرهم .

وقد نص على القصد الأول من إيتاء موسى الـكتاب : « هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا » فلا يعتمدوا إلا على الله وحده ، ولا يتجهوا إلا إلى الله وحده . فهذا هو الهدى ، وهذا هو الإيمان . فما آمن ولا اهتدى من اتخذ من دون الله وكيلا .

ولقد خاطبهم باسم آبائهم الذين حملهم مع نوح ، وهم خلاصة البشرية على عهد الرسول الأول فى الأرض . خاطبهم بهذا النسب ليذكرهم باستخلاص الله لآبائهم الأولين ، مع نوح العبد الشكور ، وليردهم إلى هذا النسب المؤمن العريق .

ووصف نوحا بالعبودية لهـذا المعنى ولمعنى آخر ، هو تنسيق صفة الرسل المختارين وإبرازها . وقد وصف بها محمدا — صلى الله عليه وسلم — من قبل . على طريقة التناسق القرآنية فى جو السورة وسياقها .

فى ذلك الكتاب الذى آتاه الله لموسى ليكون هدى لبنى إسرائيل ، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم فى الأرض . وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرر أسبابه من أفعالهم . وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد فى الأرض ، تصديقا لسنة الله الجارية التى لا تتخلف :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا » ..

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم ، حسب ماوقع فى علمه الإلهى من مآلهم ؛ لا أنه قضاء قهرى عليهم ، تنشأ عنه أفعالهم . فالله سبحانه لا يقضى بالإفساد على أحد « قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء » إنما يعلم الله ماسيكون علمه بما هو كائن . فما سيكون — بالقياس إلى علم الله — كائن ، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد ، ولم يكشف عنه الستار .

ولقد قضى الله لبنى إسرائيل فى الكتاب الذى آتاه لموسى أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ، وأنهم سيعلون فى الأرض المقدسة ويسيطرون . وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميرا :

« فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا » .

فهذه هى الأولى : يعلون فى الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها. فيبعث الله عليهم عبادا من عباده أولى بأس شديد ، وأولى بطش وقوة ، يستبيحون الديار ، ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويطأون مافيها ومن فيها بلا تهيب « وكان وعدا مفعولا » لا يخلف ولا يكذب .

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل ؛ فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم . وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم ، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا فى الأرض ، أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكن للمستضعفين من المستكبرين : «ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا » ..

ثم تتكرر القصة من جديد !

وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء :

« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » ..

القاعدة التى لا تتغير فى الدنيا وفى الأخرى ؛ والتى تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه . وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ؛ وتجعل الإنسان مسؤولا عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء .

فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة :

« فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ماعلوا تتبيرا » . .

ويحذف السياق ما يقع من بنى إسرائيل بعد الكرة من إفساد فى الأرض ، اكتفاء بذكره من قبل : « لتفسدن فى الأرض مرتين » ويثبت مايسلطه عليهم فى المرة الآخرة : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم » بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال . ويستبيحون المقدسات ويستهينون بها : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » ويدمرون مايغلبون عليه من مال وديار « وليتبروا ماعلوا تتبيرا » .. وهى صورة للدمار الشامل الكامل الذى يطغى على كل شىء ، والذى لا يبقى على شىء .

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد ، فسلط الله على بنى إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم فى الأرض ، ودمر مملكتهم فيها تدميرا .

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بنى إسرائيل ، لأن النص عليها لا يزيد فى العبرة شيئا . والعبرة هى المطلوبة هنا . وبيان سنة الله فى الخلق هو المقصود .

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقا للرحمة : « عسى ربكم أن يرحمكم » إن أفدتم منه عبرة .

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد فى الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية : « وإن عدتم عدنا » ..

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها . ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عبادا آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم « هتلر » .. ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد فى صورة « إسرائيل » التى أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقا لوعد الله القاطع ، وفاقا لسنته التى لا تتخلف .. وإن غدا لناظره قريب !

ويختم السياق الآية بمصير الكافرين فى الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة :

« وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » .. تحصرهم فلا يفلت منهم أحد ؛ وتتسع لهم فلا يند عنها أحد .

* * *

ومن هـذه الحلقة من سيرة بنى إسرائيل ، وكتابهم الذى آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يهتدوا ؛ بل ضلوا فهلكوا .. ينتقل السياق إلى القرآن . القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » ..

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ..

هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان ؛ ويشمل مايهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدى إليه البشر فى كل زمان ومكان .

يهدى للتى هى أقوم فى عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التى لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتى تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية فى تناسق واتساق .

ويهدى للتى هى أقوم فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هى كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التى لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهى مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة .

ويهدى للتى هى أقوم فى عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وتترخص حتى تشيع فى النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدى للتى هى أقوم فى علاقات الناس بعضهم ببعض : أفرادا وأزواجا ، وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التى لا تتأثر بالرأى والهوى ؛ ولا تميل مع المودة والشنآن ؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التى أقامها العليم الخبير لخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم فى كل أرض وفى كل جيل ، فيهديهم للتى هى أقوم فى نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان .

ويهدى للتى هى أقوم فى تبنى الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية فى سلام ووئام .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . . « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » فهذه هى قاعدته الأصيلة فى العمل والجزاء . فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه . فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان . الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثانى مقطوع لا ركيزة له . وبهما معا تسير الحياة على التى هى أقوم . . وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن .

فأما الذين لا يهتدون بهدى القرآن ، فهم متروكون لهوى الإنسان . الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره ، المندفع الذى لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له :

« ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » ..

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها . ولقد يفعل الفعل وهو شر ، ويعجل به على

نفسه وهو لا يدرى . أو يدرى ولـكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه .. فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادىء الهادى ؟ ألا إنهما طريقان مختلفان : شتان شتان . هدى القرآن وهوى الإنسان !

* * *

ومن الإشارة إلى الإسراء وما صاحبه من آيات ؛ والإشارة إلى نوح ومن حملوا معه من المؤمنين ؛ والإشارة إلى قصة بنى إسرائيل وما قضاه الله لهم فى الـكتاب ، وما يدل عليه هـذا القضاء من سنن الله فى العباد ، ومن قواعد العمل والجزاء ؛ والإشارة إلى الـكتاب الأخير الذى يهدى للتى هى أقوم . .

من هذه الإشارات إلى آيات الله التى أعطاها للرسل ينتقل السياق إلى آيات الله الـكونية فى هذا الوجود ، يربط بها نشاط البشر وأعمالهم ، وجهدهم وجزاءهم ، وكسبهم وحسابهم ، فإذا نواميس العمل والجزاء والـكسب والحساب مرتبطة أشد ارتباط بالنواميس الـكونية الـكبرى ، محكومة بالنواميس ذاتهـا ، قائمـة على قواعد وسنن لا تتخلف ، دقيقة منظمة دقة النظام الـكونى الذى يصرف الليل والنهار ؛ مدبرة بإرادة الخالق الذى جعل الليل والنهار :

« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا ؛ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلـكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ؛ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » ..

فالناموس الـكونى الذى يحكم الليل والنهار ، يرتبط به سعى الناس للـكسب . وعلم السنين والحساب : ويرتبط به كسب الإنسان من خير وشر وجزاؤه على الخير والشر . وترتبط به عواقب الهدى والضلال ، وفردية التبعة فلا تزر وازرة وزر أخرى . ويرتبط به

وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولا . وترتبط به سنة الله فى إهلاك القرى بعد أن يفسق فيها مترفوها . وترتبط به مصائر الذين يطلبون العاجلة والذين يطلبون الآخرة وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء فى الدنيا والآخرة .. كلها تمضى وفق ناموس ثابت وسنن لا تتبدل ، ونظام لا يتحول . فليس شىء من هذا كله جزافا .

« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا » ..

والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تشيان بدقة الناموس الذى لا يصيبه الخلل مرة واحدة ، ولا يدركه التعطل مرة واحدة ، ولا ينى يعمل دائبا بالليل والنهار . فما المحو المقصود هنا وآية الليل باقية كآية النهار ؟ يبدو — والله أعلم — أن المقصود به ظلمة الليل التى تخفى فيها الأشياء وتسكن فيها الحركات والأشباح .. فكأن الليل محو إذا قيس إلى ضوء النهار وحركة الأحياء فيه والأشياء ؛ وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء الذى يكشف كل شىء فيه للأبصار .

ذلك المحو لليل والبروز للنهار « لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » . . فالليل للراحة والسكون والجمام ، والنهار للسعى والكسب والقيام ، ومن المخالفة بين الليل والنهار يعلم البشر عدد السنين ، ويعلمون حساب المواعيد والفصول والمعاملات .

« وكل شىء فصلناه تفصيلا » فليس شىء وليس أمر فى هذا الوجود متروكا للمصادفة والجزاف . ودقة الناموس الذى يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل ، وهى عليه شاهد ودليل .

بهذا الناموس الكونى الدقيق يرتبط العمل والجزاء .

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

وطائر كل إنسان مايطير له من عمله ، أى مايقسم له من العمل ، وهو كناية عما يعمله . وإلزامه له فى عنقه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقته ؛ على طريقة القرآن فى تجسيم المعانى وإبرازها فى صورة حسية . فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه . وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشورا يوم القيامة . فهو يصور عمله مكشوفا ، لا يملك إخفاءه ، أو تجاهله أو المغالطة فيه . ويتجسم هذا المعنى فى صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثرا فى النفس وأشد تأثيرا فى الحس ؛ وإذا الخيال البشرى يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب فى

فى فزع طائر من اليوم العصيب ، الذى تتكشف فيه الخبايا والأسرار ، ولا يحتاج إلى شاهد أوحسيب : « اقرأ كتابك . كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

وبذلك الناموس الكونى الدقيق ترتبط قاعدة العمل والجزاء :

« من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » ..

فهى التبعة الفردية التى تربط كل إنسان بنفسه ؛ إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها . وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد . إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزى كل بعمله ولا يسأل حميم حميما ..

وقد شاءت رحمة الله ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية المبثوثة فى صفحات الوجود ، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذى أخذه على بنى آدم فى ظهور آبائهم[1] ، إنما يرسل اليهم الرسل منذرين ومذكرين : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وهى رحمة من الله أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب .

كذلك تمضى سنة الله فى إهلاك القرى وأخذ أهلها فى الدنيا ، مرتبطة بذلك الناموس الكونى الذى يصرف الليل والنهار :

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناهاتدميرا» .

والمترفون فى كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة ، حتى تترهل نفوسهم وتأسن ، وترتع فى الفسق والمجانة ، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ فى الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا فى الأرض فسادا ، ونشروا الفاحشة فى الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التى لا تعيش الشعوب إلا بها ولها . ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخى ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحتها .

والآية تقرر سنة الله هذه . فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثر فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك . وهى المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدى المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذى يسمح

---

(١) يراجع الجزء الأول والجزء التاسع

بوجود المترفين . فوجود المترفين ذاته هو السبب الذى من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها مااستحقت الهلاك ، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسننا لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته . والله لا يأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء . ولكن وجود المترفين فى ذاته ، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت فى طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا . وهى التى تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة .

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهرى الذى ينشىء السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب . الأمر الذى لا مفر منه لأن السنة جرت به . والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق ، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهى الفسق .

وهنا تبرز تبعة الجماعة فى ترك النظم الفاسدة تنشىء آثارها التى لا مفر منها . وعدم الضرب على أيدى المترفين فيها كى لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا .

هذه السنة قد مضت فى الأولين من بعد نوح ، قرنا بعد قرن ، كلما فشت الذنوب فى أمة انتهت بها إلى ذلك المصير ، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير :

« وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا » .

***

وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التى يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه فى الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره فى الآخرة جهنم عن استحقاق . فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات . ويرتكبون فى سبيل تحصيل اللذة الأرضية مايؤدى بهم إلى جهنم :

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ، وجعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا »

مذموما بما ارتكب ، مدحورا بما انتهى إليه من عذاب .

« ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

والذى يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها ، فيؤدى تكاليفها ، وينهض بتبعاتها ، ويقيم سعيه لها على الإيمان . وليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . والسعى للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة ، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع فى الأرض هو الهدف والغاية . ولاضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلايكون عبدا لهذا المتاع .

وإذا كان الذى يريد العاجلة ينتهى إلى جهنم مذموما مدحورا ، فالذى يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهى إليها مشكورا يتلقى التكريم فى الملأ الأعلى جزاء السعى الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضىء .

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام. فأما الحياة للآخرة فهى الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذى خلقه فسواه ، وأودع روحه ذلك السر الذى ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه .

على أن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله . سواء منهم من يطلب الدنيا فيعطاها ومن يطلب الآخرة فيلقاها . وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه ، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك . وما كان عطاء ربك محظورا » .

والتفاوت فى الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم ، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة . فكيف بهم فى المجال الواسع وفى المدى المتطاول. كيف بهم فى الآخرة التى لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ؟

« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

فمن شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضل الضخم ، فهو هناك فى الآخرة . هنالك فى الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التى لا يعلم حدودها إلا الله . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون لا فى متاع الدنيا القليل الهزيل . . .

« لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ : رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا .

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا .

« وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ؛ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً .

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا .

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً * وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً .

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ؛ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا .

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ

كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا .

« كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

« ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا » .

فى الدرس الماضى ربطت قواعد العمل والجزاء ، والهدى والضلال ، والكسب والحساب .. إلى الناموس الكونى الذى يصرف الليل والنهار . وفى هذا الدرس تربط قواعد السلوك والآداب والتكاليف الفردية والاجتماعية إلى العقيدة فى وحدة الله ، كما تربط بهذه العروة الوثقى جميع الروابط وتشد إليها كل الوشائج ، فى الأسرة وفى الجماعة وفى الحياة .

وفى الدرس الماضى ورد « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وورد : « وكل شىء فصلناه تفصيلا » .

ففى هذا الدرس يعرض شيئاً من أوامر هذا القرآن ونواهيه ، مما يهدى للتى هى أقوم ، ويفصل شيئاً مما اشتمل عليه من قواعد السلوك فى واقع الحياة .

يبدأ الدرس بالنهى عن الشرك ، وبإعلان قضاء الله بعبادته وحده . ومن ثم تبدأ الأوامر والتكاليف : بر الوالدين ، وإيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، فى غير إسراف ولا تبذير . وتحريم قتل الذرية ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل . ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والتثبت من الحق ، والنهى عن الخيلاء والكبر . . . . وينتهى بالتحذير من الشرك . فإذا الأوامر والنواهى والتكاليف محصورة بين بدء الدرس وختامه ، مشدودة إلى عقيدة التوحيد التى يقوم عليها بناء الحياة .

* * *

« لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا » .

إنه النهى عن الشرك والتحذير من عاقبته ، والأمر عام ، ولـكنه وجه إلى الفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به ، صادر إلى شخصه . فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته ، والعاقبة التى تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن « يقعد » «مذموما» بالفعلة الذميمة التى أقدم عليها ، « مخذولا » لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه . ولفظ « فتقعد » يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان .فقعد ، ويلقى ظل الضعف فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزا ، وهو يلقى كذلك ظل الاستمرار فى حالة النبذ والخذلان ، لأن القعود لا يوحى بالحركة ولا تغير الوضع ، فهو لفظ مقصود فى هذا المـكان .

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » . .

فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهى عن الشرك . أمر فى صورة قضاء . فهو أمر حتمى حتمية القضاء . ولفظة « قضىْ » تخلع على الأمر معنى التوكيد ، إلى جانب القصر الذى يفيده النفى والاستثناء « ألا تعبدوا إلا إياه » فتبدو فى جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد .

فإذا وضعت القاعدة ، وأقيم الأساس ، جاءت التـكاليف الفردية والاجتماعية ، ولها فى النفس ركيزة من العقيدة فى الله الواحد ، توحد البواعث والأهداف من التـكاليف والأعمال.

والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هى رابطة الأسرة ،ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبـادة الله ، إعلاناً لقيمة هذا البر عند الله :

« وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الـكبر أحدهما أو كلاهما فلاتقل لهما : أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

بهذه العبارات الندية ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الـكريم وجدان البر والرحمة فى قلوب الأبناء . ذلك أن الحياة وهى مندفعة فى طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام. إلى الذرية . إلى الناشئة الجديدة. إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة المولية . إلى الجيل الذاهب ! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شىء حتى بالذات . وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء

فى البيضة فإذا هى قشر ؛ كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية — إن أمهلهما الأجل — وهما مع ذلك سعيدان !

فأما الأولاد فسرعان ماينسون هـذا كله ، ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية . . وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف !

وهنا يجىء الأمر بالإحسان إلى الوالدين فى صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله .

ثم يأخذ السياق فى تظليل الجو كله بأرق الظلال ؛ وفى استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان :

« إما يبلغن عندك الكبر أحـدهما أو كلاهما » .. والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ؛ وكلمة « عندك » تصور معنى الالتجاء والاحتماء فى حالة الكبر والضعف . . « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » وهى أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يند من الولد مايدل على الضجر والضيق ، وما يشى بالإهانة وسوء الأدب .. « وقل لهما قولا كريما » وهى مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشى بالإكرام والاحترام .. « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» وهنا يشف التعبير ويلطف ، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان . فهى الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذى لا يرفع عينا ، ولا يرفض أمرا . وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام . « وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » فهى الذكرى الحانية . ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان ، وهما اليوم فى مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان . وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع ، ورعاية الله أشمل ، وجناب الله أرحب . وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء .

قال الحافظ أبو بكر البزار — بأسناده — عن بريدة عن أبيه : أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بهـا فسأل النبى — صلى الله عليه وسلم — هل أديت حقهـا ؟ قال : لا . ولا بزفرة واحدة .

***

ولأن الانفعالات والحركات موصولة بالعقيدة فى السياق ، فإنه يعقب على ذلك برجع الأمر كله لله الذى يعلم النوايا ، ويعلم ماوراء الأقوال والأفعال :

« ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا » .

وجاء هـذا النص قبل أن يمضى فى بقية التكاليف والواجبات والآداب ليرجع إليه كل قول وكل فعل ؛ وليفتح باب التوبة والرحمة لمن يخطىء أو يقصر ، ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير .

وما دام القلب صالحا ، فإن باب المغفرة مفتوح. والأوابون هم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين .

***

ثم يمضى السياق بعد الوالدين إلى ذوى القربى أجمعين؛ ويصل بهم المساكين وابن السبيل ، متوسعا فى القرابات حتى تشمل الروابط الإنسانية بمعناها الكبير :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ؛ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسورا » .

والقرآن يجعل لذى القربى والمسكين وابن السبيل حقا فى الأعناق يوفى بالإنفاق . فليس هو تفضلا من أحد على أحد؛ إنما هو الحق الذى فرضه الله ، ووصله بعبادته وتوحيده . الحق الذى يؤديه المكلف فيبرىء ذمته ، ويصل المودة بينه وبين من يعطيه ، وإن هو إلا مؤد ما عليه لله .

وينهى القرآن عن التبذير . والتبذير ــ كما يفسره ابن مسعود وابن عباس ــ الإنفاق فى غير حق . وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ، ولو أنفق مُدًّا فى غير حق كان مبذرا .

فليست هى الكثرة والقلة فى الإنفاق . إنما هو موضع الإنفاق . ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين ، لأنهم ينفقون فى الباطل ، وينفقون فى الشر ، وينفقون فى المعصية . فهم رفقاء الشياطين وصحابهم « وكان الشيطان لربه كفورا » لا يؤدى حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقها أن ينفقوها فى الطاعات والحقوق ، غير متجاوزين ولا مبذرين .

فإذا لم يجد إنسان ما يؤدى به حق ذوى القربى والمساكين وابن السبيل واستحيا أن يواجههم ، وتوجه إلى الله يرجو أن يرزقه ويرزقهم ، فليعدهم إلى ميسرة ،

وليقل لهم قولا لينا ، فلا يضيق بهم صدره ، ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق فى سكوته ، ففى القول الميسور عوض وأمل وتجمل .

* * *

وبمناسبة التبذير والنهى عنه يأمر بالتوسط فى الإنفاق كافة :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . .

والتوازن هو القاعدة الكبرى فى النهج الإسلامى ، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن . والتعبير هنا يجرى على طريقة التصوير ؛ فيرسم البخل يداً مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يدا مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قعدة كقعدة الملوم المحسور . والحسير فى اللغة الدابة تعجز عن السير فتقف ضعفاً وعجزا . فكذلك البخيل يحسره بخله فيقف . وكذلك المسرف ينتهى به سرفه إلى وقفة الحسير . ملوما فى الحالتين على البخل وعلى السرف ، وخير الأمور الوسط .

ثم يعقب على الأمر بالتوسط بأن الرازق هو الله . هو الذى يبسط فى الرزق ويوسع ، وهو الذى يقدر فى الرزق ويضيق . ومعطى الرزق هو الآمر بالتوسط فى الإنفاق :

« إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » .

يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر ، ويقدر الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر . ويأمر بالقصد والاعتدال ، وينهى عن البخل والسرف ، وهو الخبير البصير بالأقوم فى جميع الأحوال؛ وقد أنزل هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم فى جميع الأحوال .

* * *

وكان بعض أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق ؛ فلما قرر فى الآية السابقة أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، أتبعه بالنهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق فى المكان المناسب من السياق . فما دام الرزق بيد الله ، فلاعلاقة إذن بين الإملاق وكثرة النسل أو نوع النسل ؛ إنما الأمر كله إلى الله . ومتى انتفت العلاقة بين الفقر والنسل من تفكير الناس ، وصححت عقيدتهم من هذه الناحية فقد انتفى الدافع إلى تلك الفعلة الوحشية المنافية لفطرة الأحياء وسنة الحياة :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيرا » . .

إن انحراف العقيدة وفسادها ينشىء آثاره فى حياة الجماعة الواقعية ، ولا يقتصر على فساد الاعتقاد والطقوس التعبدية . وتصحيح العقيدة ينشىء آثاره فى صحة المشاعر وسلامتها ، وفى سلامة الحياة الاجتماعية واستقامتها . وهذا المثل من وأد البنات مثل بارز على آثار العقيدة فى واقع الجماعة الإنسانية . وشاهد على أن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة ، وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش فى معزل عن الحياة .

ثم نقف هنا لحظة أمام مثل من دقائق التعبير القرآنى العجيبة .

ففى هـذا الموضع قدم رزق الأبناء على رزق الآباء : « نحن نرزقهم وإياكم » وفى سورة الأنعام قدم رزق الآباء على رزق الأبناء : « نحن نرزقكم وإياهم » . وذلك بسبب اختلاف آخر فى مدلول النصين . فهذا النص : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » : والنص الآخر « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

هنا قتل الأولاد خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم رزق الأولاد . وفى الأنعام قتلهم بسبب فقر الآباء فعلا . فقدم رزق الآباء . فكان التقديم والتأخير وفق مقتضى الدلالات التعبيرية هنا وهناك .

ومن النهى عن قتل الأولاد إلى النهى عن الزنا :

« ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » ..

وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة ــ وقد توسط النهى عن الزنا بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن قتل النفس ــ لذات الصلة وذات المناسبة .

إن فى الزنا قتلا من نواحى شتى . إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها ، يتبعه غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق ، قبل مولده أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة ، فهى حياة مضيعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء . . وهو قتل فى صورة أخرى . قتل للجماعة التى يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة فى العرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهى إلى مايشبه الموت بين الجماعات .

وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعى إليها ، والأسرة هى المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه .

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال ، منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث . وقد يغر بعضهم أن أوربا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما . ولكن آثار هذا الانحلال فى الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها . أما فى الأمم الفتية كالولايات المتحدة ، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده كالشاب الذى يسرف فى شهواته فلا يظهر أثر الإسراف فى بنيته وهو شاب ولكنه سرعان مايتحطم عندما يدلف إلى الكهولة فلا يقوى على احتمال آثار السن ، كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده !

والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا . وهى مبالغة فى التحرز . لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة ، فالتحرز من المقاربة أضمن . فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان .

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة ، توقيا للوقوع فيه . . يكره الاختلاط فى غير ضرورة . ويحرم الخلوة . وينهى عن التبرج بالزينة . ويحض على الزواج لمن استطاع ، ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع . ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالاة فى المهور . وينفى الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد . ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم . ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع ، وعلى رمى المحصنات الغافلات دون برهان ... إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج ، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردى والانحلال .

***

ويختم النهى عن قتل الأولاد وعن الزنا بالنهى عن قتل النفس إلا بالحق :

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ، إنه كان منصورا » ..

والإسلام دين الحياة ودين السلام ، فقتل النفس عنده كبيرة تلى الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفى الحدود التى يرسمها . وكل نفس هى حرم لا يمس ، وحرام إلا بالحق ، وهذا الحق الذى يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه ، وليس متروكا للرأى ولا متأثرا بالهوى . وقد جاء فى الصحيحين أن رسول

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا يحـل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فأما الأولى فهى القصاص العادل الذى إن قتل نفسا فقد ضمن الحياة لنفوس « ولكم فى القصاص حياة » . حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء . وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل ، بل يمضوا فى الثأر ، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل دماء ودماء . وحياة بأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص ، فينطلق آمنا يعمل وينتج فإذا الأمة كلها فى حياة .

وأما الثانية فهى دفع للفساد القاتل فى انتشار الفاحشة ، وهى لون من القتل على النحو الذى بيناه .

وأما الثالثة فهى دفع للفساد الروحى الذى يشيع الفوضى فى الجماعة ، ويهدد أمنها ونظامها الذى اختاره الله لها ، ويسلمها إلى الفرقة القاتلة . والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الإسلام لم يجبر عليه ، ودخل فى جسم الجماعة المسلمة ، واطلع على أسرارها ، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها . ولو بقى خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام . بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين . وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين فى العقيدة .

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .. « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا » . .

تلك الأسباب الثلاثة هى المبيحة للقتـل ، فمن قتل مظلوما بغير واحد من تلك الأسباب ، فقد جعل الله لوليه ـ وهو أقرب عاصب إليه ـ سلطانا على القاتل ، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية ، وإن شاء عفا عنه بلا دية . فهو صاحب الأمر فى التصرف فى القاتل ، لأن دمه له .

وفى مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف فى القتل استغلالا لهذا السلطان الذى منحه إياه . والإسراف فى القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم ـ كما يقع فى الثأر الجاهلى الذى يؤخذ فيه الآباء والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل ـ ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل ، والولى مسلط على دمه بلا مثلة . فالله يكره المثلة والرسول قد نهى عنها .

« فلا يسرف فى القتــل إنه كان منصورا » يقضى له الله ، ويؤيده الشرع ، وينصره الحاكم . فليــكن عادلا فى قصاصه ، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه .

وفى تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية ، وتهدئة للغليان الذى تستشعره نفس الولى . الغليان الذى قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يمينا وشمالا فى حمى الغضب والانفعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل ، وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص ، فإن ثائرته تهدأ ونفسه تسكن ويقف عند حد القصاص العادل الهادىء .

والإنسان إنسان فلا يطالب بغير ما ركب فى فطرته من الرغبة العميقة فى القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبيها فى الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضا . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ويحبب فيه ، ويأجر عليه . ولــكن بعد أن يعطى الحق . فولى الدم أن يقتص أو يصفح . وشعور ولى الدم بأنه قادر على كليهما قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ويدفع به إلى الغلو والجماح !

* * *

وبعد أن ينتهى السياق من حرمة العرض وحرمة النفس ، يتحدث عن حرمة مال اليتيم ، وحرمة العهد :

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا » ..

والإسلام يحفظ على المسلم دمه وعرضه وماله ، لقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله »[1] ولــكنه يشدد فى مال اليتيم ويبرز النهى عن مجرد قربه إلا بالتى هى أحسن . ذلك أن اليتيم ضعيف عن تدبير ماله ، ضعيف عن الذود عنه ، والجماعة الإسلامية مكلفة برعاية اليتيم وماله حتى يبلغ أشده ويرشد ويستطيع أن يدبر ماله وأن يدفع عنه .

ومما يلاحظ فى هذه الأوامر والنواهى أن الأمور التى يكلف بها كل فرد بصفته الفردية جاء الأمر أو النهى فيها بصيغة المفرد ؛ أما الأمور التى تناط بالجماعة فقد جاء الأمر أو النهى فيها

---

(١) أخرجه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

بصيغة الجمع ، ففي الإحسان للوالدين وإيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، وعدم التبذير ، والتوسط فى الإنفاق بين البخل والسرف ، وفى التثبت من الحق والنهى عن الخيلاء والكبر.. كان الأمر أو النهى بصيغة المفرد لما لها من صبغة فردية . وفى النهى عن قتل الأولاد وعن الزنا وعن قتل النفس ، والأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان كان الأمر أو النهى بصيغة الجمع لما لها من صبغة جماعية .

ومن ثم جاء النهى عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن فى صيغة الجمع ، لتكون الجماعة كلها مسؤولة عن اليتيم وماله ، فهذا عهد عليها بوصفها جماعة .

ولأن رعاية مال اليتيم عهد على الجماعة ألحق به الأمر بالوفاء بالعهد إطلاقا . « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا » . . يسأل الله جل جلاله عن الوفاء به ، ويحاسب من ينكث به وينقضه .

وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد . لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة . وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن والحديث ؛ سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس . عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة . عهد الحاكم وعهد المحكوم . وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأوا بعيدا فى الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام[1] .

* * *

ومن الوفاء بالعهد إلى إيفاء الكيل والميزان :

« وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلا » . .

والمناسبة بين الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان ظاهرة فى المعنى واللفظ ، فالانتقال فى السياق ملحوظ التناسق .

وإيفاء الكيل والاستقامة فى الوزن ، أمانة فى التعامل ، ونظافة فى القلب ، يستقيم بهما التعامل فى الجماعة ، وتتوافر بهما الثقة فى النفوس ، وتتم بهما البركة فى الحياة . « ذلك خير وأحسن تأويلا » .. خير فى الدنيا وأحسن مآلا فى الآخرة .

---

(١) يراجع كتاب « السلام العالمى فى الإسلام » فصل : « سلام المجتمع » فقرة : « العنصر الأخلاقى فى المعاملات » .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ، ليس به إلا مخافة الله ، إلا أبدله الله به فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير من ذلك » .

والطمع فى الكيل والوزن قذارة وصغار فى النفس ، وغش وخيانة فى التعامل تزعزع بهما الثقة ، ويتبعها الكساد ، وتقل بهما البركة فى محيط الجماعة ، فيرتد هذا على الأفراد ؛ وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف . وهو كسب ظاهرى ووقتى ، لأن الكساد فى الجماعة يعود على الأفراد بعد حين .

وهذه حقيقة أدركها بعيدو النظر فى عالم التجارة فاتبعوها ، ولم يكن الدافع الأخلاقى ، أو الحافز الدينى هو الباعث عليها ؛ بل مجرد إدراكها فى واقع السوق بالتجربة العملية .

والفارق بين من يلتزم إيفاء الكيل والميزان تجارة ، ومن يلتزمه اعتقادا . . أن هذا يحقق أهداف ذاك ؛ ويزيد عليه نظافة القلب والتطلع فى نشاطه العملى إلى آفاق أعلى من الأرض ، وأوسع فى تصور الحياة وتذوقها .

وهكذا يحقق الإسلام دائماً أهداف الحياة العملية وهو ماضٍ فى طريقه إلى آفاقه الوضيئة وآماده البعيدة ، ومجالاته الرحيبة .

* * *

والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة . فلا يقوم شىء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة :

« ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد . . كل أولئك كان عنه مسؤولا » . . .

وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثاً جدا ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة !

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق . ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة فى عالم العقيدة . ولم يبق مجال للظن والشبهة فى عالم الحكم والقضاء والتعامل . ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية فى عالم البحوث والتجارب والعلوم .

والأمانة العلميــة التى يشيد بها الناس فى العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التى يعلن القرآن تبعتها الـكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد . .

إنهــا أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب . أمانة يسأل عنهــا صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة .

« ولا تقف ما ليس لك به علم » . . ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعى أو قضية اعتقادية .

وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » . وفى سنن أبى داود : « بئس مطية الرجل : زعموا » وفى الحديث الآخر : « إن أفرى الفرى أن يُرىَ الرجل عينيه ما لم تريا » . .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الـكامل المتـكامل الذى لا يأخذ العقل وحده بالتحرج فى أحكامه ، والتثبت فى استقرائه ؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب فى خواطره وتصوراته ، وفى مشاعره وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروى حادثة ولا ينقل رواية ،ولا يحكم العقل حكماً ولا يبرم الإنسان أمرا إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة فى صحتها .« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » حقا وصدقا . .

* * *

وتختم هــذه الأوامر والنواهى المرتبطة بعقيــدة التوحيد بالنهى عن الـكبر الفارغ والخيلاء الـكاذبة :

« ولا تمش فى الأرض مرحا . إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » . .

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان ، أو قوة أو جمال . ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام

حول الله ، لطامن من كبريائه ، وخفف من خيلائه ، ومشى على الأرض هونا لا تيها ولا مرحا .

والقرآن يجبه المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته : « إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل ، لا يبلغ شيئا من الأجسام الضخمة التى خلقها الله . إنما هو قوى بقوة الله ، عزيز بعزة الله ، كريم بروحه الذى نفخه الله فيه ، ليتصل به ويراقبه ولا ينساه .

ذلك التطامن والتواضع الذى يدعو إليه القرآن بترذيل المرح والخيلاء ، أدب مع الله ، وأدب مع الناس . أدب نفسى وأدب اجتماعى . وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعجب إلا فارغ صغير القلب صغير الاهتمامات . يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته ، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه .

وفى الحديث : « من تواضع لله رفعه فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير . ومن استكبر وضعه الله ، فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير . حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير[١] » .

* * *

وتنتهى تلك الأوامر والنواهى والغالب فيها هو النهى عن ذميم الفعال والصفات بإعلان كراهية الله للسيء منها :

« كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » .

فيكون هذا تلخيصا وتذكيرا بمرجع الأمر والنهى وهو كراهية الله للسيء من تلك الأمور . ويسكت عن الحسن المأمور به ، لأن النهى عن السيء هو الغالب فيها كما ذكرنا .

ويختم الأوامر والنواهى كما بدأها بربطها بالله وعقيدة التوحيد والتحذير من الشرك . وبيان أنها بعض الحكمة التى يهدى إليها القرآن الذى أوحاه الله إلى الرسول :

« ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » .

وهو ختام يشبه الابتداء ، فتجيء محبوكة الطرفين ، موصولة بالقاعدة الكبرى التى يقيم عليها الإسلام بناء الحياة ، قاعدة توحيد الله وعبادته دون سواه . .

(١) رواه ابن كثير فى التفسير .

« أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُلْ : لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .

« وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ؟ *قُلْ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا*أَوْخَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ! فَسَيَقُولُونَ : مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ : الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ : مَتَى هُوَ ؟ قُلْ : عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا * وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا .

« قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » .

بدأ الدرس الثانى وانتهى بتوحيد الله والنهى عن الشرك به ، وضم بين البداية والنهاية تكاليف وأوامر ونواهى وآدابا مرتكزة كلها على قاعدة التوحيد الوطيدة .. ويبدأ هـذا الدرس وينتهى باستنكار فكرة الولد والشريك ، وبيان مافيها من اضطراب وتهافت ، وتقرير وحـدة الاتجاه الـكونى إلى الخالق الواحد : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » ووحـدة المصير والرجعة إلى الله فى الآخرة ، ووحدة علم الله الشامل بمن فى السماوات ومن فى الأرض ؛ ووحدة التصرف فى شؤون الخلائق بلا معقب : « إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم » ..

ومن خلال السياق تتهافت عقائد الشرك وتتهاوى ، وتتفرد الذات الإلهية بالعبادة والاتجاه والقدرة والتصرف والحـكم فى هـذا الوجود ، ظاهره وخافيه ، دنياه وآخرته ؛ ويبدو الوجود كله متجها إلى خالقه فى تسبيحة مديدة شاملة تشترك فيها الأحياء والأشياء .

* * *

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائـكة إناثا ؟ إنـكم لتقولون قولا عظيما ؟ »

استفهام للاستنكار والتهكم . استنكار لما يقولون من أن الملائـكة بنات الله ، تعالى الله عن الولد والصاحبة كما تعالى عن الشبيه والشريك . وتهـكم على نسبة البنات لله وهم يعدون البنات أدنى من البنين ويقتلون البنات خوف الفقر أو العار ؛ ومع هذا يجعلون الملائـكة إناثا ، وينسبون هؤلاء الإناث إلى الله ! فإذا كان الله هو واهب البنين والبنـات ، فهل أصفاهم بالبنين المفضلين واتخذ لنفسه الإناث المفضولات ؟!

وهذا كله على سبيل مجاراتهم فى ادعاءاتهم لبيان ما فيها من تفـكك وتهافت . وإلا فالقضية كلها مستنـكرة من الأساس :

« إنـكم لتقولون قولا عظيما » .. عظيما فى شناعته و بشاعته ، عظيما فى جرأته ووقاحته ، عظيما فى ضخامة الافتراء فيه ، عظيما فى خروجه عن التصور والتصديق .

«ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذ كروا ، وما يزيدهم إلا نفورا » ..

فقد جاء القرآن بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقا شتى ، وأساليب متنوعة ، ووسائل متعددة « ليذ كروا » فالتوحيد لا يحتاج إلى أ كثر من التذ كر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الـكونية ودلالتها ؛ ولـكنهم يزيدون نفورا كلما سمعوا هذا القرآن . نفورا من العقيدة التى جاء بها ، ونفورا من القرآن ذاته خيفة أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة التى يستمسكون بها . عقائد الشرك والوهم والترهات .

وكما جاراهم فى إدعاءاتهم فى حكاية البنات ونسبتها إلى الله ليكشف عما فيها من تفكك وتهافت ، فهو يجاريهم فى حكاية الآلهة المدعاة ، ليقرر أن هذه الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله ، وأن تجد لها وسيلة إليه وسبيلا :

« قل : لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » . .

ولو ــ كما يقول النحاة ــ حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هنالك آلهة مع الله ــ كما يقولون ــ والآلهة التى يدعونها إن هى إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجما أو كوكبا ، إنسانا أو حيوانا ، نباتا أو جمادا . وهـذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التى تحكمها وتصرفها ؛ وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته :

« إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » .. وذكر العرش هنا يوحى بالارتفاع والتسامى على هذه الخلائق التى يدعون أنها آلهة « مع » الله . وهى تحت عرشه وليست معه .. ويعقب على ذلك بتنزيه الله فى علاه :

« سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » ..

ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهدا فريدا ، تحت عرش الله ، يتوجه كله إلى الله ، يسبح له ويجد الوسيلة إليه :

« تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا » ..

وهو تعبير تنبض به كل ذرة فى هذا الكون الكبير ، وتنتفض روحا حية تسبح الله. فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية ، ترتفع فى جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال .

وإنه لمشهد كونى فريد ، حين يتصور القلب . كل حصاة وكل حجر . كل حبة وكل ورقة . كل زهرة وكل ثمرة . كل نبتة وكل شجرة . كل حشرة وكل زاحفة . كل حيوان وكل إنسان . كل دابة على الأرض وكل سابحة فى الماء والهواء .. ومعها سكان السماء .. كلها تسبح الله وتتوجه إليه فى علاه .

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب فى كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه ، وكلما همت يده أن تلمس شيئا ، وكلما همت رجله أن تطأ شيئا .. سمعه يسبح لله ، وينبض بالحياة .

« وإن من شيء إلا يسبح بحمده » يسبح بطريقته ولغته « ولكن لاتفقهون تسبيحهم» لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين ، ولأنكم لم تتسمعوا بقلوبكم ، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية ، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة فى هذا الكون الكبير ، وتتوجه بها إلى الله خالق النواميس ، ومدبر هذا الكون الكبير .

وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ، ويتوجه بالتسبيح ، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى ، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لايدركه الغافلون ، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية فى ضمير هذا الوجود ، النابضة فى كل متحرك وساكن ، وفى كل شيء فى هذا الوجود .

« إنه كان حليما غفورا » . . وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير فى ظل هذا الموكب الكونى المسبح بحمد الله ، بينما البشر فى جحود وفيهم من يشرك بالله ، ومن ينسب له البنات ، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه . والبشر أولى من كل شيء فى هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد . ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم « إنه كان حليما غفورا » .

* * *

ولقد كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به ؛ فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا ، حجابا خفيا ، وجعل على قلوبهم كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل فى آذانهم كالصمم فلا تعى ما فيه من توجيه :

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا . نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى . إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلا » . .

وقد روى ابن إسحاق فى السيرة عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى بالليل فى بيته ؛ فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا

يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا ، فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ؛ فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا مايراد بها . قال الأخنس : وأنا ، والذى حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ؛ فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! قال فقام عنه الأخنس وتركه . .

فهكذا كان القوم تتأثر بالقرآن فطرتهم فيصدونها، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيمانعونها، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا لايظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فإذا هم لا ينتفعون به ، ولا يهتدون بالقرآن الذى يتلوه . وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن ، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه ؛ ثم يغلبهم التأثر به فيعودون ، ثم يتناجون من جديد ، حتى ليتعاهدون على عدم العودة ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذى يخلب القلوب والألباب ! ذلك أن عقيدة التوحيد التى يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم فى مكانتهم وفى امتيازاتهم وفى كبريائهم فينفرون منها :

« وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » . .

نفورا من كلمة التوحيد ، التى تهدد وضعهم الاجتماعى ، القائم على أوهام الوثنية وتقاليد الجاهلية ، وإلا فقد كان كبراء قريش أذكى من أن يخفى عليهم ما فى عقائدهم من تهافت ، وما فى الإسلام من تماسك ، وأعرف بالقول من أن يغيب عنهم ما فى القرآن من سمو وارتفاع وامتياز . وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستماع إليه والتأثر به ، على شدة ما يمانعون قلوبهم ويدافعونها !

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ؛ والكبرياء تدفعهم عن التسليم والإذعان ؛ فيطلقون التهم على الرسول — صلى الله عليه وسلم — يعتذرون بها عن المكابرة والعناد :

« وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » . .

وهذه الكلمة ذاتها تحمل فى ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن ؛ فهم يستكثرون فى دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر؛ لأنهم يحسون فيه شيئا غير بشرى . ويحسون دبيبه الخفى فى مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر ، يرجعون إليه هذه الغرابة فى قوله ، وهذا التميز فى حديثه ، وهذا التفوق فى نظمه . فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه ، إنما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر ! ولو أنصفوا لقالوا : إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ، ولا خلق آخر من خلق الله .

« انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » . .

ضربوا لك الأمثال بالمسحورين ولست بمسحور ، إنما أنت رسول ، فضلوا ولم يهتدوا ، وحاروا فلم يجدوا طريقا يسلكونه . لا إلى الهدى ، ولا إلى تعليل موقفهم المريب !

* * *

ذلك قولهم عن القرآن ، وعن الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو يتلو عليهم القرآن . كذلك كذبوا بالبعث ، وكفروا بالآخرة :

« وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ قل : كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم . فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة . فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » . .

وقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول — صلى الله عليه وسلم — والمشركين ، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل . مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر . ولقد عرضها القرآن الكريم فى هذا الضوء مرات . ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة ؛ فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام :

« وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا » ؟

ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلا ثم كانوا ، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى . وأنه لا شيء أمام القدرة الإلهية أعسر من شيء ، وأداة الخلق واحـدة في كل شيء : « كن فيكون » فيستوى إذن أن يكون الشيء سهلا وأن يكون صعبا في نظر الناس ، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه .

وكان الرد على ذلك التعجب :

« قل : كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم » . .

والعظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة ؛ والحديد والحجارة أبعد عن الحياة. فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة . . فسيبعثكم الله .

وهم لا يملـكون أن يكونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر ولـكنه قول للتحدى . وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر ، وفي هذا إيماء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر !

« فسيقولون : من يعيدنا » ؟

من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتا وعظاما ، أو خلقا آخر أشد إيغالا في الموت والجمود ؟

« قل : الذى فطركم أول مرة » . .

وهو رد يرجع المشـكلة إلى تصور بسيط واضح مريح . فالذى أنشأهم إنشاء قادر على أن يردهم أحياء . ولـكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون :

« فسينغضون إليك رؤوسهم » ينغضونها علوا أو سفلا ، استنـكارا واستهزاء :

« ويقولون: متى هو ؟ » : استبعادا لهذا الحادث واستنـكارا .

« قل : عسى أن يكون قريبا » . .

فالرسول لا يعلم موعده تحديدا . ولـكن لعله أقرب مما يظنون . وما أجدرهم أن يخشوا وقوعه وهم في غفلتهم يكذبون ويستهزئون !

ثم يرسم مشهدا سريعا لذلك اليوم :

« يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » . .

وهو مشهد يصور أولئك المـكذبين بالبعث المنـكرين له ، وقد قاموا يلبون دعوة الداع ،

وألسنتهم تلهج بحمد الله . ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب !

وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون اليوم كله وينكرون الله ، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا : الحمد لله . الحمد لله !

ويومئذ تنطوى الحياة الدنيا كما ينطوى الظل : « وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

وتصوير الشعور بالدنيا على هذا النحو يصغر من قيمتها فى نفوس المخاطبين ، فإذا هى قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلالها فى النفس وصورها فى الحس ، إلا أنها لمحة مرت وعهد زال وظل تحول ، ومتاع قليل .

***

ثم يلتفت السياق عن هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور ، المستهزئين بوعد الله وقول الرسول ، المنغضين رؤوسهم المتهكمين المتهجمين . . يلتفت عنهم إلى عباد الله المؤمنين ليوجههم الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائما بالحسنى :

« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » .

« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » على وجه الإطلاق وفى كل مجال . فيختاروا أحسن مايقال ليقولوه .. بذلك يتقون أن يفسد الشيطان مابينهم من مودة . فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت ، وبالرد السيء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء . والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، وتندّى جفافها ، وتجمعها على الود الكريم .

« إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا» ..

يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه ، فيغرى بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه . والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة آمنا من نزغاته ونفثاته .

***

وبعد هذه اللفتة يعود السياق إلى مصائر القوم يوم يدعوهم فيستجيبون بحمده ، فإذا المصير

كله بيد الله وحده ، إن شاء رحم ، وإن شاء عذب ، وهم متروكون لقضاء الله ، وما الرسول عليهم بوكيل ، إن هو إلا رسول :

« ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا. وربك أعلم بمن فى السماوات والأرض » ..

فالعلم المطلق لله. وهو يرتب على كامل علمه بالناس رحمتهم أو عذابهم . وعند البلاغ تنتهى وظيفة الرسول .

وعلم الله الكامل يشمل من فى السماوات والأرض من ملائكة ورسل وإنس وجن ، وكائنات لا يعلم إلا الله ماهى ؟ وما قدرها ؟ وما درجتها .

وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض :

« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » . وهو تفضيل يعلم الله أسبابه . أما مظاهر هذا التفضيل فقد سبق الحديث عنها فى الجزء الثالث من هذه الظلال عند تفسير قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » . . فيراجع فى موضعه هناك :

« وآتينا داود زبورا » .. وهو نموذج من عطاء الله لأحد أنبيائه ، ومن مظاهر التفضيل أيضا . إذ كانت الكتب أبقى من الخوارق المادية التى يراها بعض الناس فى ظرف معين من الزمان .

***

وينتهى هذا الدرس الذى بدأ بنفى فكرة الأبناء والشركاء ، واستطرد إلى تفرد الله سبحانه بالاتجاه إليه ، وتفرده بالعلم والتصرف فى مصائر العباد .. ينتهى بتحدى الذين يزعمون الشركاء ، أن يدعوا الآلهة المدعاة إلى كشف الضر عنهم لو شاء الله أن يعذبهم ، أو تحويل العذاب إلى سواهم :

« قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » . . فليس أحد بقادر على أن يكشف الضر أو يحوله إلا الله وحده ، المتصرف فى أقدار عباده .

ويقرر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الإنس .. إن هم إلا خلق من خلق الله ، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه ، ويخافون عذابه الذى يحذره من يعلم حقيقته ويخشاه :

« أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا » ..

وقد كان بعضهم يدعو عزيرا ابن الله ويعبده ، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده . وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم ، وبعضهم يدعو غير هؤلاء .. فالله يقول لهم جميعا : إن هؤلاء الذين تدعونهم ، أقربهم إلى الله يبتغى إليه الوسيلة ، ويتقرب إليه بالعبادة ، ويرجو رحمته ، ويخشى عذابه ـ وعذاب الله شديد يحذر ويخاف ـ فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجه إليه من تدعونهم آلهة من دونه وهم عباد لله ، يبتغون رضاه .

وهكذا يبدأ الدرس ويختم ببيان تهافت عقائد الشرك فى كل صورها . وتفرد الله سبحانه بالألوهية والعبادة والاتجاه .

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا * وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا * وَإِذْ قُلْنَا لَكَ : إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ؛ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا .

١

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ : أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ؟ * قَالَ : أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ؟ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ : اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ، وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ، وَالْأَوْلَادِ ، وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا .

« رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُوراً * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ؟ * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ؟

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا * يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » .

انتهى الدرس السابق بتقرير أن الله وحده هو المتصرف فى مصائر العباد ، إن شاء رحمهم وإن شاء عذبهم ؛ وأن الآلهة التى يدعونها من دونه لا تملك كشف الضر عنهم ولا تحويله إلى سواهم .

فالآن يستطرد السياق إلى بيان المصير النهائى للبشر جميعا ـ كما قدره الله فى علمه وقضائه ـ وهو انتهاء القرى جميعها إلى الموت والهلاك قبل يوم القيامة ، أو وقوع العذاب ببعضها إن ارتكبت ما يستحق العذاب . فلا يبقى حى إلا ويلاقى نهايته على أى الوجهين : الهلاك حتف أنفه أو الهلاك بالعذاب .

وبمناسبة ذكر العذاب الذى يحل ببعض القرى يشير السياق إلى ما كان يسبقه من الخوارق على أيدى الرسل ـ قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ هذه الخوارق التى امتنعت فى هذه الرسالة ، لأن الأولين الذين جاءتهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك . والهلاك لم يقدر على أمة محمد لذلك لم يرسله بالخوارق المادية ، وما كانت الخوارق إلا تخويفا للأمم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها .

وقد كف الله الناس عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعصمه منهم فلا يصلون إليه . وأراه الرؤيا الصادقة فى الإسراء لتكون ابتلاء للناس ، ولم يتخذ منها خارقة كخوارق الرسالات من قبل ، وخوفهم الشجرة الملعونة فى القرآن ـ شجرة الزقوم ـ التى رآها فى أصل الجحيم ، فلم يزدهم التخويف إلا طغيانا . وإذن فما كانت الخوارق إلا لتزيدهم طغيانا .

وفى هذا الموضع من السياق تجىء قصة إبليس مع آدم ، وإذن الله لإبليس فى ذرية آدم إلا الصالحين من عباده فقد عصمهم من سلطانه وإغوائه . . فتكشف القصة عن أسباب الغواية الأصيلة التى تقود الناس إلى الكفر والطغيان ، وتبعدهم عن تدبر الآيات .

ويلمس السياق فى هذا الموضع وجدان الإنسان بذكر فضل الله على بنى آدم ، ومقابلتهم هذا الفضل بالبطر والجحود ، فلايذكرون الله إلا فى ساعات الشدة . فإذا مسهم الضر فى البحر لجأوا إليه . فإذا أنجاهم إلى البر أعرضوا . والله قادر على أن يأخذهم فى البر وفى البحر سواء ! ولقد كرمهم الله وفضلهم على كثير ممن خلقه ، ولكنهم لا يشكرون ولا يذكرون .

ويختم هذا الدرس بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يوم يلقون جزاءهم على ما قدمت أيديهم ، فلا مجال للنجاة لأحد إلا بما قدمت يداه .

* * *

« وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديدا . كان ذلك فى الكتاب مسطورا » . . .

فقد قدر الله أن يجىء يوم القيامة ووجه هذه الأرض خال من الحياة ، فالهلاك ينتظر كل حى قبل ذلك اليوم الموعود . كذلك قدر العذاب لبعض هذه القرى بما ترتكب من ذنوب . ذلك ما ركز فى علم الله . والله يعلم ما سيكون علمه بما هو كائن . فالذى كان والذى سيكون كله بالقياس إلى علم الله سواء .

وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهى الهلاك بالعذاب . ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان ؛ أما الجاحدون فقد كذبوا بها فى زمانهم . ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق :

« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » .

إن معجزة الإسلام هى القرآن . وهو كتاب يرسم منهجاً كاملا للحياة . ويخاطب الفكر والقلب ، ويلبى الفطرة القويمة . ويبقى مفتوحا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة . أما الخارقة المادية فهى تخاطب جيلا واحدا من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل .

على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا بها . وقد ضرب السياق المثل بثمود ، الذين جاءتهم الناقة وفق ما طلبوا واقترحوا آية واضحة . فظلموا بها أنفسهم وأوردوها موارد الهلكة تصديقا لوعد الله بإهلاك المكذبين بالآية الخارقة . وما كانت الآيات إلا إنذاراً وتخويفاً بحتمية الهلاك بعد مجىء الآيات .

هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجىء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق . لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها . ولأنها رسالة الرشد البشرى تخاطب مدارك الإنسان جيلا بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذى تتميز به بشريته والذى من أجله كرمه الله على كثير من خلقه .

أما الخوارق التى وقعت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة . إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء .

« وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا » .

ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقيناً . ومن ثم كانت الرؤيا التى أراها الله لعبده فى تلك الليلة « فتنة للناس » وابتلاء لإيمانهم . أما إحاطة الله بالناس فقد كانت وعدا من الله لرسوله بالنصر ، وعصمة له من أن تمتد أيديهم إليه .

ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما أطلعه الله عليه فى رؤياه الكاشفة الصادقة . ومنه شجرة الزقوم التى يخوف الله بها المكذبين . فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكما : هاتوا لنا تمراً وزبدا ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا !

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هى آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين ؟ وما زادتهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغياناً كبيرا ؟

إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده . ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة . فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق . أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب .. ومن المكذبين من آمن بعد ذلك وكان من جند الإسلام الصادقين . ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين . وظل القرآن ــ معجزة الإسلام ــ كتابا مفتوحا لجيل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وللأجيال بعده ، فآمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته . إنما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه . وسيبقى القرآن كتابا مفتوحا للأجيال ، يهتدى به من هم بعد فى ضمير الغيب ، وقد يكون منهم من هو أشد إيمانا وأصلح عملا ، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه ..

* * *

وفى ظل الرؤيا التى رآها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ واطلع فيها على ما اطلع من عوالم ، والشجرة الملعونة التى يطعم منها أتباع الشياطين . . يجىء مشهد إبليس الملعون ، يهدد ويتوعد بإغواء الضالين :

«وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس . قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ قال : أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ ؟ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم . وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا » ..

إن السياق يكشف عن الأسباب الأصيلة لضلال الضالين ، فيعرض هذا المشهد هنا ، ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية ، ويرون إبليس عدوهم وعدو أبيهم يتهددهم بها ، عن إصرار سابق قديم !

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ »

إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله فى هذا الطين !

ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية ، فيقول فى تبجح :

«أرأيتك هذا الذى كرمت على ؟ » أترى هذا المخلوق الذى جعلته أكرم منى عندك ؟

«لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » .. فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم فى قبضة يدى أصرف أمرهم .

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية. عن حالته التى يكون فيها متصلا بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية ، ويغفل عن أن هذه هى مزية هـذا المخلوق التى ترفعه على ذوى الطبيعة المفردة التى لا تعرف إلا طريقا واحـدا تسلـكه بلا إرادة . فالإرادة هى سر هذا المخلوق العجيب .

وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام ، يحاول محاولته مع بنى الإنسان:

«قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » ..

اذهب فحاول محاولتك . اذهب مأذونا فى إغوائهم . فهم مزودون بالعقل والإرادة ، يملـكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك « فمن تبعك منهم » مغلبا جانب الغواية فى نفسه على جانب الهداية ، معرضا عن نداء الرحمان إلى نداء الشيطان ، غافلا عن آيات الله فى الـكون ، وآيات الله الصاحبة للرسالات ، « فإن جهنم جزاؤكم » أنت وتابعوك «جزاء موفورا » .

« واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك »

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول . فهى المعركة الصاخبة ، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات . يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمـكيدة المدبرة . فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال !

« وشاركهم فى الأموال والأولاد » ..

وهذه الشركة تتمثل فى أوهام الوثنية الجاهلية ، إذ كانوا يجعلون فى أموالهم نصيبا للآلهة المدعاة — فهى للشيطان — وفى أولادهم نذورا للآلهة أو عبيدا لها — فهى للشيطان — كعبد اللات وعبد مناة . وأحيانا كانوا يجعلونها للشيطان رأسا كعبد الحارث !

كما تتمثل فى كل مال يجبى من حرام ، أو يتصرف فيه بغير حق ، أو ينفق فى إثم . وفى كل ولد يجيء من حرام . ففيه شركة للشيطان .

والتعبير يصور فى عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة !

وإبليس مأذون فى أن يستخدم وسائله كلها ، ومنهـا الوعود المغرية الخادعة : « وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص . والوعد بالغنى من الأسباب الحرام . والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة ...

ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ؛ وهى الثغرة التى يدخل

منها الشيطان على كثير من القلوب التى يعزعليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة . فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لهـا الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة !

اذهب مأذونا فى إغواء من يجنحون إليك . ولـكن هنالك من لا سلطان لك عليهم ، لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك !

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا » . .

فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها . متى أيقظ فى روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت . . فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان . . « وكفى بربك وكيلا » يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان .

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده ، ويستذل عبيده ، ولـكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن ، فما له عليهم من سلطان .

* * *

ذلك مايبيته الشيطان للناس من شر وأذى ؛ ثم يوجد فى الناس من يتبعون هذا الشيطان ، ويستمعون إليه ، ويعرضون عن نداء الله لهم وهـدايته . والله رحيم بهم يعينهم ويهديهم وييسر لهم المعاش ، وينجيهم من الضر والـكرب ، ويستجيب لهم فى موقف الشدة والضيق . . ثم إذا هم يعرضون ويكفرون :

« ربكم الذى يزجى لـكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا » . .

والسياق يعرض هذا المشهد ، مشهد الفلك فى البحر ، نموذجا للحظات الشدة والحرج . لأن الشعور بيد الله فى الخضم أقوى وأشد حساسية ، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة فى الخضم ، تتقاذفها الأمواج والتيارات ، والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمان .

إنه مشهد يحس به من كابده ، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة فى الفلك صغيراً كان أو كبيرا حتى عابرات المحيط الجبارة التى تبدو فى بعض اللحظات كالريشة فى مهب الرياح على ثبج الموج الجبار !

والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجى لهم الفلك فى البحر وتدفعه ليبتغوا من فضله « إنه كان بكم رحيما » فالرحمة هى أظهر ما تستشعره القلوب فى هذا الأوان .

ثم ينتقل بهم من الإزجاء الرخى للاضطراب العتى . حين ينسى الركب فى الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده فى لحظة الخطر لا يدعون أحدا سواه : « ضل من تدعون إلا إياه » . .

ولكن الإنسان هوَّ الإنسان ، فما إن تنجلى الغمرة ، وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات ، وتغطى على فطرته التى جلاها الخطر : « فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار .

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذى تركوه فى البحر وهو يلاحقهم فى البر أو وهم يعودون إليه فى البحر ، ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا فى جوار الله وحماه ، لا فى البحر ولا فى البر ؛ لا فى الموجة الرخية والريح المواتية ولا فى الملجأ الحصين والمنزل المريح :

« أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا ؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟ » .

إن البشر فى قبضة الله فى كل لحظة وفى كل بقعة . إنهم فى قبضته فى البر كما هم فى قبضته فى البحر . فكيف يأمنون ؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار ، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلا يحميهم ويدفع عنهم ؟

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحا قاصفة ، تقصف الصوارى وتحطم السفين ، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم ، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم ؟

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا . ثم يأمنوا أخذه وكيده. وهم يتوجهون إليه وحده فى الشدة ثم ينسونه بعد النجاة . كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله !

* * *

ذلك وقد كرم الله هذا المخلوق البشرى على كثير من خلقه . كرمه بخلقته على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التى تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء فى ذلك الكيان !

وكرمه بالاستعدادات التى أودعها فطرته ؛ والتى استأهل بها الخلافة فى الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشىء ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة .

وكرمه بتسخير القوى الكونية له فى الأرض وإمداده بعون القوى الكونية فى الكواكب والأفلاك . .

وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذى استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذى تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان !

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله فى كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقى فى الأرض . . القرآن . .

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . .

« وحملناهم فى البر والبحر » والحمل فى البر والبحر يتم بتسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات ، ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية ، وهى ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية فى البر والبحر . ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها ، ومزود كذلك بالاستعدادات التى تمكنه من استخدامها . وكله من فضل الله .

« ورزقناهم من الطيبات » . . والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التى رزقها إلا حين يحرمها. فعندئذ يعرف قيمة مايستمتع به ، ولكنه سرعان ما يعود فينسى . . هذه الشمس . هذا الهواء . هذا الماء . هذه الصحة . هذه القدرة على الحركة . هذه الحواس . هذا العقل . . هذه المطاعم والمشارب والمشاهد . . . هذا الكون الطويل العريض الذى استخلف فيه ، وفيه من الطيبات ما لا يحصيه .

« وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . . فضلناهم بهذا الاستخلاف فى ملك الأرض الطويل العريض . وبما ركب فى فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنسانى فذاً بين الخلائق فى ملك الله . . .

* * *

ومن التكريم أن يكون الإنسان قيما على نفسه ، محتملا تبعة اتجاهه وعمله . فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانا . حرية الاتجاه وفردية التبعة . وبها استخلف في دار العمل . فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب :

« يوم ندعو كل أناس بإمامهم . فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » . .

وهو مشهد يصور الخلائق محشورة . وكل جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته ، أو الرسول الذي اقتدت به ، أو الإمام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا . تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة . . فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة ! ومن عمى في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير . وأشد ضلالا . وجزاؤه معروف . ولكن السياق يرسمه في المشهد المزدحم الهائل ، أعمى ضالا يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به ، ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمرا ، لأن مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ؛ يؤثر في القلوب !

« وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا .

« أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ ٱللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا * وَقُلْ : رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ، وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

سُلْطَانًا نَصِيرًا * وَقُلْ : جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا * قُلْ : كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا * وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا .

« قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ . وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ . قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟

« وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ : لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا * قُلْ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ

زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا : أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ؟ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا .

« قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : اسْكُنُوا الْأَرْضَ ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا .

« وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ : آمِنُوا بِهِ أَوْلَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .

« قُلِ : ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا » .

هـذا الدرس الأخير فى سورة الإسراء يقوم على المحور الرئيسى للسورة . شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقف القوم منه . والقرآن الذى جاء به وخصائص هذا القرآن .

وهو يبدأ بالإشارة إلى محاولات المشركين مع الرسول ليفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ، وما هموا به من إخراجه من مكة وعصمة الله له من فتنتهم ومن استفزازهم ، لما سبق فى علمه تعالى من إمهالهم وعدم أخذهم بعذاب الإبادة كالأمم قبلهم . ولو أخرجوا الرسول لحاق بهم الهلاك وفق سنة الله التى لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من الأقوام .

ومن ثم يؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يمضى فى طريقه يصلى لربه ويقرأ قرآنه ويدعو الله أن يدخله مدخل صدق ويخرجه مخرج صدق ويجعل له سلطان نصيراً ، ويعلن مجىء الحق وزهوق الباطل . فهذا الاتصال بالله هو سلاحه الذى يعصمه من الفتنة ويكفل له النصر والسلطان .

ثم بيان لوظيفة القرآن فهو شفاء ورحمة لمن يؤمنون به ، وهو عذاب ونقمة على من يكذبون ، فهم فى عذاب منه فى الدنيا ويلقون العذاب بسببه فى الآخرة .

وبمناسبة الرحمة والعذاب يذكر السياق شيئا من صفة الإنسان فى حالتى الرحمة والعذاب . فهو فى النعمة متبطر معرض ، وهو فى النقمة يؤوس قنوط . ويعقب على هذا بتهديد خفى بترك كل إنسان يعمل وفق طبيعته حتى يلقى فى الآخرة جزاءه .

كذلك يقرر أن علم الإنسان قليل ضئيل . وذلك بمناسبة سؤالهم عن الروح . والروح غيب من غيب الله ، ليس فى مقدور البشر إدراكه .. والعلم المستيقن هو ما أنزله الله على رسوله . وهو من فضله عليه ولو شاء الله لذهب بهذا الفضل دون معقب ، ولكنها رحمة الله وفضله على رسوله .

ثم يذكر أن هـذا القرآن المعجز الذى لا يستطيع الإنسان والجن أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا وتظاهروا ، والذى صرف الله فيه دلائل الهدى ونوعها لتخاطب كل عقل وكل قلب .. هـذا القرآن لم يغن كفار قريش ، فراحوا يطلبون إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خوارق مادية ساذجة كتفجير الينابيع فى الأرض ، أو أن يكون له بيت من زخرف ؛ كما تعنتوا فطلبوا ما ليس من خصائص البشر كأن يرقى الرسول فى السماء أمامهم ويأتى إليهم بكتاب مادى يقرأونه ، أو يرسل عليهم قطعا من السماء تهلكهم . وزادوا عنتا وكفرا فطلبوا أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلا !

وهنا يعرض السياق مشهدا من مشاهد القيامة يصور فيه عاقبتهم التى تنتظرهم جزاء هذا العنت ، وجزاء تكذيبهم بالآخرة ، واستنكارهم البعث وقد صاروا عظاما ورفاتا .

ويسخر من اقتراحاتهم المتعنتة ، وهم لو كانوا خزنة رحمة الله ، لأدركهم الشح البشرى فأمسكوا خشية نفاد الخزائن التى لا تنفد ! وهم مع ذلك لا يقفون عند حد فيما يطلبون ويقترحون !

وبمناسبة طلبهم الخوارق يذكرهم بالخوارق التى جاء بها موسى فكذب بها فرعون وقومه فأهلكهم الله حسب سنته فى إهلاك المكذبين .

فأما هذا القرآن فهو المعجزة الباقية الحقة . وقد جاء متفرقا حسب حاجة الأمة التى جاء لتربيتها وإعدادها . والذين أوتوا العلم من قبله من مؤمنى الأمم السابقة يدركون ما فيه من حق ويذعنون له ويخشعون ، ويؤمنون به ويسلمون .

وتنتهى السورة بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عبادة الله وحده ، وإلى تسبيحه وحمده ، كما بدأت بالتسبيح والتنزيه ..

***

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره . وإذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا . وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » . .

يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه ، ليفترى عليه غيره ، وهو الصادق الأمين .

لقد حاولوا هذه المحاولة فى صور شتى . . منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه فى مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم . ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذى حرمه الله . ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء . . .

والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ، ليذكر فضل الله على الرسول فى تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلا .

وللقى عاقبة الركون إلى فتنـة المشركين ، وهى مضاعفة العذاب فى الحياة والممات ، دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله .

هذه المحاولات التى عصم الله منها رسوله ، هى محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائما . محاولة إغرائهم لينحرفوا — ولو قليلا — عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحلول الوسط التى يغرونهم بها فى مقابل مغانم كثيرة . ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هينا ، فأصحاب السلطان لايطلبون إليه أن يترك دعوته كلية ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقى الطرفان فى منتصف الطريق . وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة ، فيتصور أن خير الدعوة فى كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها !

ولـكن الانحراف الطفيف فى أول الطريق ينتهى إلى الانحراف الـكامل فى نهاية الطريق. وصاحب الدعوة الذى يقبل التسليم فى جزء منها ولو يسير ، وفى إغفال طرف منها ولو ضئيل ، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة . لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء !

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها . فالذى ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذى يسكت عن طرف منها مهما ضؤل ، لايمكن أن يكون مؤمنا بدعوته حق الإيمان . فـكل جانب من جوانب الدعوة فى نظر المؤمن هو حق كالآخر . وليس فيها فاضل ومفضول . وليس فيها ضرورى ونافلة . وليس فيها مايمكن الاستغناء عنه ، وهى كلٌّ متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه . كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره !

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات . فإذا سلموا فى الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم ، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة ، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها !

والتسليم فى جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لـكسب أصحاب السلطان إلى صفها ؛ هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحـاب السلطـان فى نصرة الدعوة . والله وحـده هو الذى يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم . ومتى دبت الهزيمة فى أعماق السريرة ، فلن تنقلب الهزيمة نصرا !

لذلك امتن الله على رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن ثبته على ماأوحى الله ، وعصمه من

فتنة المشركين له ، ووقاه الركون إليهم ـ ولو قليلا ـ ورحمه من عاقبة هـذا الركون ، وهى عذاب الدنيا والآخرة مضاعفا ، وفقدان المعين والنصير .

وعندما عجز المشركون عن استدراج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هـذه الفتنة حاولوا استفزازه من الأرض ـ أى مكة ـ ولـكن الله أوحى إليه أن يخرج هو مهاجرا ، لما سبق فى علمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة . ولو أخرجوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنوة وقسرا لحل بهم الهلاك « وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا » فهذه هى سنة الله النافذة : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا » .

ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول ، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم . وهذا الـكون تصرفه سنن مطردة ، لا تتحول أمام اعتبار فردى. وليست المصادفات العابرة هى السائدة فى هـذا الـكون ، إنما هى السنن المطردة الثابتة . فلما لم يرد الله أن يأخـذ قريشا بعذاب الإبادة كما أخذ المـكذبين من قبل ، لحـكمة علوية ، لم يرسل الرسول بالخوارق ، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة ، بل أوحى إليه بالهجرة . ومضت سنة الله فى طريقها لا تتحول ..

* * *

بعد ذلك يوجه الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الاتصال به ، واستمداد العون منه ، والمضى فى طريقه ، يعلن انتصار الحق وزهوق الباطل :

«أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا ؛ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ؛ وقل : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا . وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . .

ودلوك الشمس هو ميلها إلى المغيب . والأمر هنا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة . أما الصلاة المـكتوبة فلها أوقاتها التى تواترت بها أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتواترت بها سنته العملية . وقد فسر بعضهم دلوك الشمس بزوالها عن كبد السماء ، والغسق بأول الليل ، وفسر قرآن الفجر بصلاة الفجر ، وأخذ من هـذا أوقات الصلاة المـكتوبة وهى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ـ من دلوك الشمس إلى الغسق ـ ثم الفجر . وجعل التهجد وحده هو الذى اختص رسول الله بأن يـكون مأمورا به ، وأنه نافلة له .

ونحن نميل إلى الرأى الأول . وهو أن كل ماورد فى هذه الآيات مختص بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن أوقات الصلاة المكتوبة ثابتة بالسنة القولية والعملية .

« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » .. أقم الصلاة مابين ميل الشمس للغروب وإقبال الليل وظلامه ؛ واقرأ قرآن الفجر «إن قرآن الفجر كان مشهودا » . . ولهذين الآنين خاصيتها وهما إدبار النهار وإقبال الليل . وإدبار الليل وإقبال النهار . ولهما وقعهما العميق فى النفس،فإن مقدم الليل وزحف الظلام ، كمطلع النور وانكشاف الظلمة .. كلاهما يخشع فيه القلب ، وكلاهما مجال للتأمل والتفكر فى نواميس الكون التى لا تفتر لحظة ولا تختل مرة . وللقرآن ـ كما للصلاة ـ إيقاعه فى الحس فى مطلع الفجر ونداوته ، ونسماته الرخية ، وهدوئه السارب ، وتفتحه بالنور ، ونبضه بالحركة ، وتنفسه بالحياة .

« ومن الليل فتهجد به نافلة لك » .. والتهجد الصلاة بعد نومة أول الليل . والضمير فى « به » عائد على القرآن ، لأنه روح الصلاة وقوامها .

« عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .. بهذه الصلاة وبهذا القرآن والتهجد به ، وبهذه الصلة الدائمة بالله . فهذا هو الطريق المؤدى إلى المقام المحمود . وإذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به[1] ، وهو المصطفى المختار ، فما أحوج الآخرين إلى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به فى درجاتهم . فهذا هو الطريق . وهذا هو زاد الطريق .

« وقل : رب أدخلنى مدخل صدق . وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » .

وهو دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعوه به . ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وفيم تتجه إليه . دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج ، كناية عن صدق الرحلة كلها . بدئها وختامها . أولها وآخرها ومابين الأول والآخر . وللصدق هنا قيمته بمناسبة ماحاوله المشركون من فتنته عما أنزل الله عليه ليفترى على الله غيره. وللصدق كذلك ظلاله : ظلال الثبات والاطمئنان والنظافة والإخلاص . « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » قوة وهيبة أستعلى بها على سلطان الأرض وقوة المشركين وكلمة « من لدنك » تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه .

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله . ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان

---

(١) فى روايات أنه مقام الشفاعة يوم القيامة .

الله . لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذى جاه فينصره ويمنعه مالم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله . والدعوة قد تغزو قلوب ذوى السلطان والجاه ، فيصبحون لها جندا وخدما فيفلحون، ولكنها هى لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه ، فهى من أمر الله ، وهى أعلى من ذوى السلطان والجاه .

« وقل : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . .

بهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجىء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهوق الباطل واندحاره وجلاءه . فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت ، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق . .

« إن الباطل كان زهوقا » . . حقيقة لدنية يقررها بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل ينتفخ ويتنفج وينفش ، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة؛ ومن ثم يحاول أن يموه على العين ، وأن يبدو عظيما كبيرا ضخماً راسخا ، ولكنه هش سريع العطب ، كشعلة الهشيم ترتفع فى الفضاء عالياً ثم تخبو سريعا وتستحيل إلى رماد؛ بينما الجمرة الذاكية تدفىء وتنفع وتبقى ؛ وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء .

« إن الباطل كان زهوقا » . . لأنه لا يحمل عناصر البقاء فى ذاته ، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية ؛ فإذا تخلخلت تلك العوامل ، ووهت هذه الأسناد تهاوى وانهار . فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده . وقد تقف ضده الأهواء وتقف ضده الظروف ويقف ضده السلطان . . ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء ، لأنه من عند الله الذى جعل « الحق » من أسمائه وهو الحى الباقى الذى لا يزول .

« إن الباطل كان زهوقا » . . ومن ورائه الشيطان ، ومن ورائه السلطان . ولكن وعد الله أصدق ، وسلطان الله أقوى . وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان ، إلا وذاق معه حلاوة الوعد ، وصدق العهد . ومن أوفى بعهده من الله ؟ ومن أصدق من الله حديثا ؟

* * *

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . .

وفى القرآن شفاء ، وفى القرآن رحمة ، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من روْح ، وطمأنينة وأمان .

فى القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة . فهو يصل القلب بالله ، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة ؛ والقلق مرض ، والحيرة نصب ، والوسوسة داء . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفى القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان . . وهى من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب ، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفى القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة فى الشعور والتفكير . فهو يعصم العقل من الشطط ، ويطلق له الحرية فى مجالاته المثمرة ، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدى ، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط ، يجعل نشاطه منتجا ومأمونا . ويعصمه من الشطط والزلل . وكذلك هو فى عالم الجسد ينفق طاقاته فى اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليما معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفى القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التى تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها . فتعيش الجماعة فى ظل نظامه الاجتماعى وعدالته الشاملة فى سلامة وأمن وطمأنينة. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

« ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . .

فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة . وهم فى غيظ وقهر من استعلاء المؤمنين به ، وهم فى عنادهم وكبريائهم يشتطون فى الظلم والفساد ، وهم فى الدنيا مغلوبون من أهل هذا القرآن ، فهم خاسرون . وفى الآخرة معذبون بكفرهم به ولجاجهم فى الطغيان ، فهم خاسرون: « ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . .

* * *

فأما حين يترك الإنسان بلا شفاء ولا رحمة . حين يترك لنزعاته واندفاعاته فهو فى حال النعمة متبطر معرض لا يشكر ولا يذكر ، وهو فى حال الشدة يائس من رحمة الله ، تظلم فى وجهه فجاج الحياة :

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يؤوسا » . .

والنعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر ، والشدة تيئس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله ، فيرجو ويأمل ، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله ، فيتفاءل ويستبشر .

ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان وما فيه من رحمة فى السراء والضراء سواء .

ثم يقرر السياق أن كل فرد وكل فريق يعمل وفق طريقته واتجاهه ؛ والحكم على الاتجاهات والأعمال موكول لله :

« قل : كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » . .

وفى هذا التقرير تهديد خفى ، بعاقبة العمل والاتجاه ، ليأخذ كل حذره ، ويحاول أن يسلك سبيل الهدى ويجد طريقه إلى الله .

* * *

وراح بعضهم يسأل الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن الروح ماهو ؟ والمنهج الذى سار عليه القرآن — وهو المنهج الأقوم — أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفته ؛ فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفى غير مجالها الذى تملك وسائله وتحيط به . فلما سألوه عن الروح أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمر الله ، اختص بعلمه دون سواه :

« ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[1] » . .

وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل . ولكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل فى حدوده وفى مجاله الذى يدركه . فلا جدوى من الخبط فى التيه ، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه . والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشرى وبعض الخلائق التى لا نعلم حقيقتها . وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشرى المحدود . والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة فى الأرض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه ، فى حدود علمه القليل .

ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ما أبدع ؛ ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف — الروح — لا يدرى ما هو ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير فى التنزيل .

---

(١) فى الأرجح أن هذا السؤال جاء من أهل الكتاب وأن هذه الآية مدنية هى وسبع آيات بعدها .

وما جاء فى التنزيل هو العلم المستيقن ، لأنه من العليم الخبير . ولو شاء الله لحرم البشرية منه ، وذهب بما أوحى إلى رسوله ؛ ولـكنها رحمة الله وفضله .

« ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلا . إلا رحمة من ربك ، إن فضله كان عليك كبيرا » . .

والله يمتن على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الفضل . فضل إنزال الوحى ، واستبقاء ما أوحى به إليه ؛ والمنة على الناس أكبر ، فهم بهذا القرآن فى رحمة وهداية ونعمة ، أجيالا بعد أجيال .

* * *

وكما أن الروح من الأسرار التى اختص الله بها فالقرآن من صنع الله الذى لا يملك الخلق محاكاته ، ولا يملك الإنس والجن ـ وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفى ـ أن يأتوا بمثله ، ولو تظاهروا وتعاونوا فى هذه المحاولة :

« قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . .

فهذا القرآن ليس ألفاظا وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها . إنما هو كسائر مايبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه . هو كالروح من أمر الله لايدرك الخلق سره الشامل الـكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره .

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل . منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التى تصرف النفس البشرية فى كل أطوارها وأحوالها ، والتى تصرف الجماعات الإنسانية فى كل ظروفها وأطوارها . ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملائمة للفطرة المتغلغلة فى وشائجها ودروبها ومنحنياتها الـكثيرة . يعالجها علاجاً متكاملا متناسق الخطوات فى كل جانب ، فى الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الـكثيرة ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة فى حياة الفرد وحياة الجماعة . لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة فى كل أحوالها وملابساتها المتشابكة .

أما النظم البشرية فهى متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته . ومن ثم فهى تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات فى الوقت الواحد ؛ وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدى بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد !

إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به .

« ولقد صرفنا فى هـذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ؛ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ؛ أو تسقط السماء ـ كما زعمت ـ علينا كسفا ؛ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ؛ أو يكون لك بيت من زخرف ؛ أو ترقى فى السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ... » .

وهكذا قصر إدراكهم عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية ؛ فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية ، ويتعنتون فى اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية ، أو يتبجحون فى حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج . . لم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيها لعرض حقائقه فى أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر ، وشتى الأجيال والأطوار . « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » وعلقوا إيمانهم بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا ! أو بأن تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ! أو أن يأخذهم بعذاب من السماء ، فيسقطها عليهم قطعا كما أنذرهم أن يكون ذلك يوم القيامة ! أو أن يأتى بالله والملائكة قبيلا يناصره ويدفع عنه كما يفعلون هم فى قبائلهم ! أو أن يكون له بيت من المعادن الثمينة . أو أن يرقى فى السماء . ولا يكفى أن يعرج إليها وهم ينظرونه ، بل لا بد أن يعود إليهم ومعه كتاب محبر يقرأونه !

وتبدو طفولة الإدراك والتصور ، كما يبدو التعنت فى هـذه المقترحات الساذجة . وهم يسوون بين البيت المزخرف والعروج إلى السماء ! أو بين تفجير الينبوع من الأرض ومجىء الله ـ سبحانه ـ والملائكة قبيلا ! والذى يجمع فى تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنهـا خوارق . فإذا جاءهم بها نظروا فى الإيمان له والتصديق به !

وغفلوا عن الخارقة الباقية فى القرآن ، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله فى نظمه ومعناه ومنهجه ، ولـكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تدركه الحواس !

والخارقة ليست من صنع الرسول ، ولا هى من شأنه ، إنما هى من أمر الله سبحانه وفق تقديره وحكمته. وليس من شأن الرسول أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها . فأدب الرسالة وإدراك حكمة الله فى تدبيره يمنعان الرسول أن يقترح على ربه مالم يصرح له به . . « قل : سبحان

ربى هل كنت إلا بشرا رسولا » يقف عند حدود بشريته ، ويعمل وفق تكاليف رسالته ، لا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه .

* * *

ولقد كانت الشبهة التى عرضت للأقوام من قبل أن يأتيهم محمد – صلى الله عليه وسلم – ومن بعد ماجاءهم ، والتى صدتهم عن الإيمان بالرسل ومامعهم من الهدى ، أنهم استبعدوا أن يكون الرسول بشرا ؛ ولا يكون ملكا :

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ »

وقد نشأ هذا الوهم من عدم إدراك الناس لقيمة بشريتهم وكرامتها على الله ، فاستكثروا على بشر أن يكون رسولا من عند الله . كذلك نشأ هذا الوهم من عدم إدراكهم لطبيعة الكون وطبيعة الملائكة ، وأنهم ليسوا مهيئين للاستقرار فى الأرض وهم فى صورتهم الملائكية حتى يميزهم الناس ويستيقنوا أنهم ملائكة .

« قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .

فلو قدر الله أن الملائكة تعيش فى الأرض لصاغهم فى صورة آدمية ، لأنها الصورة التى تتفق مع نواميس الخلق وطبيعة الأرض ، كما قال فى آية أخرى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » والله قادر على كل شىء ، ولكنه خلق نواميس وبرأ مخلوقاته وفق هذه النواميس بقدرته واختياره ، وقدر أن تمضى النواميس فى طريقها لا تتبدل ولا تتحول ، لتحقق حكمته فى الخلق والتكوين – غير أن القوم لا يدركون !

ومادامت هذه سنة الله فى خلقه ، فهو يأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن ينهى معهم الجدل ، وأن يكل أمره وأمرهم إلى الله يشهده عليهم ، ويدع له التصرف فى أمرهم ، وهو الخبير البصير بالعباد جميعا :

« قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » . .

وهو قول يحمل رائحة التهديد . أما عاقبته فيرسمها فى مشهد من مشاهد القيامة مخيف :

« ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ، وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ أو لم يروا

أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ، فأبى الظالمون إلا كفورا » . .

ولقد جعل الله للهدى والضلال سننا ، وترك الناس لهـذه السنن يسيرون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها . ومن هذه السنن أن الإنسان مهيأ للهدى وللضلال ، وفق مايحاوله لنفسه من السير فى طريق الهدى أو طريق الضلال . فالذى يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ؛ وهذا هو المهتدى حقا ، لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحـد من عذاب الله : « فلن تجد لهم أولياء من دونه » ويحشرهم يوم القيامة فى صورة مهينة مزعجة : « على وجوهم » يتكفأون « عميا وبكما وصما » مطموسين محرومين من جوارحهم التى تهديهم فى هذا الزحام . جزاء ماعطلوا هذه الجوارح فى الدنيا عن إدراك دلائل الهدى . « ومأواهم جهنم » فى النهاية ، لاتبرد ولا تفتر « كلما خبت زدناهم سعيرا » .

وهى نهاية مفزعة وجزاء مخيف . ولـكنهم يستحقونه بكفرهم بآيات الله : « ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا » واستنكروا البعث واستبعدوا وقوعه : « وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ »

والسياق يعرض هذا المشهد كأنه هو الحاضر الآن ، وكأنما الدنيا التى كانوا فيها قد انطوت صفحتها وصارت ماضيا بعيدا . . وذلك على طريقة القرآن فى تجسيم المشاهد وعرضها واقعة حية ، تفعل فعلها فى القلوب والمشاعر قبل فوات الأوان .

ثم يعود ليجادلهم بالمنطق الواقعى الذى يرونه فيغفلونه .

« أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ » ، فأية غرابة فى البعث ؛ والله خالق هذا الـكون الهائل قادر على أن يخلق مثلهم ، فهو قادر إذا على أن يعيدهم أحياء . « وجعل لهم أجلا لا ريب فيه » أنظرهم إليه ، وأجلهم إلى موعده « فأبى الظالمون إلا كفورا » فـكان جزاؤهم عادلا بعد منطق الدلالات ومنطق المشاهدات ، ووضوح الآيات .

***

على أن أولئك الذين يقترحون على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك المقترحات المتعنتة ، من بيوت الزخرف ، وجنات النخيل والأعناب ، والينابيع المتفجرة .. بخلاء أشحاء حتى لو أن

رحمة الله قد وكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفا من نفادها ، ورحمة الله لاتنفدولاتغيض :

« قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا » .

وهى صورة بالغة للشح ، فإن رحمة الله وسعت كل شئ ، ولا يخشى نفادها ولا نقصها . ولكن نفوسهم لشحيحة تمنع هذه الرحمة وتبخل بها لو أنهم كانوا هم خزنتها !

* * *

وعلى أية حال فإن كثرة الخوارق لا تنشىء الإيمان فى القلوب الجاحدة . وهاهو ذا موسى قد أوتى تسع آيات بينات ثم كذب بها فرعون وملؤه ، فحل بهم الهلاك جميعا .

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون : إنى لأظنك ياموسى مسحورا . قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يافرعون مثبورا . فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل : اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » . .

وهذا المثل من قصة موسى وبنى إسرائيل يذكر لتناسقه مع سياق السورة وذكر المسجد الأقصى فى أولها وطرف من قصة بنى إسرائيل وموسى . وكذلك يعقب عليه بذكر الآخرة والمجىء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب فى سياق السورة ومصير المكذبين بالبعث الذى صوره هذا المشهد .

والآيات التسع المشار إليها هنا هى اليد البيضاء والعصا وما أخذ الله به فرعون وقومه من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . . « فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم » فهم شهداء على ما كان بين موسى وفرعون :

« فقال له فرعون : إنى لأظنك ياموسى مسحورا » .. فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر فى عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدرى مايقول ! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعانى ؛ ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية !

فأما موسى فهو قوى بالحق الذى أرسل به مشرقا منيرا ؛ مطمئن إلى نصرة الله له وأخذه للطغاة :

« قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض . بصائر . وإنى لأظنك يافرعون مثبورا » هالكا مدمرا ، جزاء تكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره علك هذه الخوارق . وإنها لواضحة مكشوفة منيرة للبصائر ، حتى لكأنها البصائر تكشف الحقائق وتجلوها .

عندئذ يلجأ الطاغية إلى قوته المادية ، ويعزم أن يزيلهم من الأرض ويبيدهم ، « فأراد أن يستفزهم من الأرض » فكذلك يفكر الطغاة فى الرد على كلمة الحق .

وعندئذ تحق على الطاغية كلمة الله ، وتجرى سنته بإهلاك الظالمين وتوريث المستضعفين الصابرين : « فأهلكناه ومن معه جميعاً » . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل : اسكنوا الأرض . فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » ..

وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات . وهكذا أورث الله الأرض للذين كانوا يستضعفون ، موكولين فيها إلى أعمالهم وسلوكهم — وقد عرفنا كيف كان مصيرهم فى أول السورة — أما هنا فهو يكلهم هم وأعداؤهم إلى جزاء الآخرة ، « فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » .

* * *

ذلك مثل من الخوارق ، وكيف استقبلها المكذبون ، وكيف جرت سنة الله مع المكذبين . فأما هذا القرآن فقد جاء بالحق ليكون آية دائمة ، ونزل مفرقا ليقرأ على مهل فى الزمن الطويل :

« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ، وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » . .

لقد جاء هذا القرآن ليربى أمة ، ويقيم لها نظاما ، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل . ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملابسات التى صاحبت فترة التربية الأولى . والتربية تتم فى الزمن الطويل ، وبالتجربة العملية فى الزمن الطويل . جاء ليكون منهجا عمليا يتحقق جزءا جزءا فى مرحلة الإعداد ، لا فقها نظريا ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهنى !

وتلك حكمة نزوله متفرقا ، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولى .

ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى . تلقوه توجيها يطبق فى واقع الحياة

كلما جاءهم منه أمر أو نهى ، وكلما تلقوا منه أدبا أو فريضة . ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ؛ ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير . فتكيفوا به فى حياتهم اليومية . تكيفوا به فى مشاعرهم وضمائرهم ، وفى سلوكهم ونشاطهم . وفى بيوتهم ومعاشهم . فكان منهج حياتهم الذى طرحوا كل ماعداه مما ورثوه ، ومما عرفوه ، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن .

قال ابن مسعود — رضى الله عنه — كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ولقد أنزل الله هذا القرآن قائما على الحق : «وبالحق أنزلناه» فنزل ليقر الحق فى الأرض ويثبته : « وبالحق نزل » .. فالحق مادته والحق غايته . ومن الحق قوامه ، وبالحق اهتمامه .. الحق الأصيل الثابت فى ناموس الوجود ، والذى خلق الله السماوات والأرض قائمين به ، متلبسا بهما ، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله ، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته . والرسول مبشر ومنذر بهذا الحق الذى جاء به .

وهنا يأمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يجبه القوم بهذا الحق ، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم . إن شاءوا آمنوا بالقرآن وإن شاءوا لم يؤمنوا . وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم . ويضع أمام أنظارهم نموذجا من تلقى الذين أوتوا العلم من قبله من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن ، لعل لهم فيه قدوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤتوا علما ولا كتابا :

« قل : آمنوا به أو لا تؤمنوا . إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ؛ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » ..

وهو مشهد موح يلمس الوجدان . مشهد الذين أوتوا العلم من قبله ، وهم يسمعون القرآن ، فيخشعون ، « ويخرون للأذقان سجدا » إنهم لا يتمالكون أنفسهم ، فهم لا يسجدون ولكن « يخرون للأذقان سجدا » ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده : « سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » . ويغلبهم التأثر فلا تكفى الألفاظ فى تصوير ما يجيش فى صدورهم منه ، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذى لا تصوره الألفاظ : « ويخرون للأذقان يبكون » .. « ويزيدهم خشوعا » فوق ما استقبلوه به من خشوع .

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن فى القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه ؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله . والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن ، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله .

* * *

هذا المشهد الموحى للذين أوتوا العلم من قبل يعرضه السياق بعد تخيير القوم فى أن يؤمنوا بهذا القرآن أو لا يؤمنوا ، ثم يعقب عليه بتركهم يدعون الله بما شاءوا من الأسماء — وقد كانوا بسبب أوهامهم الجاهلية ينكرون تسمية الله بالرحمن ، ويستبعدون هذا الاسم من أسماء الله — فكلها أسماؤه فما شاءوا منها فليدعوه بها :

« قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمان . أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » .

وإن هى إلا سخافات الجاهلية وأوهام الوثنية التى لا تثبت للمناقشة والتعليل .

كذلك يؤمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يتوسط فى صلاته بين الجهر والخفوت لما كانوا يقابلون به صلاته من استهزاء وإيذاء ، أو من نفور وابتعاد . ولعل الأمر كذلك لأن التوسط بين الجهر والخفاء أليق بالوقوف فى حضرة الله :

« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » . .

* * *

وتختم السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولى والنصير . وهو العلى الكبير . فيلخص هذا الختام محور السورة الذى دارت عليه ، والذى بدأت ثم ختمت به :

« وقل : الحمد الله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك . ولم يكن له ولى من الذل . وكبره تكبيرا » . .

سُورة الكهف مكية
إلا آية ٢٨ ومن آية ٨٣ إلى نهاية السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً .

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ؟ * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا : رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً.

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ . إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهاً ، لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً * هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ؟ * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً .

« وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً .

« وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قَالُوا : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً .

« وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا : ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ . قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً .

« سَيَقُولُونَ : ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، رَجْماً بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ : سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ . قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ . فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً .

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً * ـ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ـ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ : عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً .

« وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا، لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً * وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً » .

القصص هو العنصر الغالب فى هــذه السورة . ففى أولها تجىء قصة أصحاب الـكهف ، وبعدها قصة الجنتين ، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفى وسطها تجىء قصة موسى مع العبد الصالح . وفى نهايتها قصة ذى القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة ، فهو وارد فى إحــدى وسبعين آية من عشر ومئة آية ؛ ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها . وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة ، وبعض مشاهد الحياة التى تصور فـكرة أو معنى ، على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير .

أما المحور الموضوعى للسورة الذى ترتبط به موضوعاتها ، ويدور حوله سياقها ، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفـكر . وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة .

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها .

فى البدء : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الـكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما . لينذر بأسا شديدا من لدنه ؛ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا . مالهم به من علم ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

وفى الختام : « قل : إنما أنا بشر مثلـكم يوحى إلى أنما إلهـكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

وهكذا يتساوق البدء والختام فى إعلان الوحدانية وإنـكار الشرك ، وإثبات الوحى ، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث .

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة فى صور شتى :

فى قصة أصحاب الـكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم : « ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها ، لقد قلنا إذن شططا » .

وفى التعقيب عليها : « ما لهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحدا » . .

وفى قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره : « أ كفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لـكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا » .

وفى التعقيب عليها : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ، هنالك الولايه لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا» .

وفى مشهد من مشـاهد القيامة : « ويوم يقول : نادوا شركائى الذين زعمتم ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، وجعلنا بينهم موبقا » .

وفى التعقيب على مشهد آخر : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء؟ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا »

* * *

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى فى استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ماليس لهم به علم ، والذين لا يأتون على مايقولون ببرهان . وفى توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه ، ومالا علم له به فليدع أمره إلى الله .

ففى مطلع السورة : « وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ، مالهم به من علم ولا لآبائهم »

والفتية أصحاب الكهف يقولون : « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ! » وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم فى الكهف يكلون علمها لله : « قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم » .

وفى ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجما بالغيب : « سيقولون: ثلاثة رابعهم كلبهم ؛ ويقولون: خمسة سادسهم كلبهم ـ رجما بالغيب ـ ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم . قل : ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل ؛ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا » .

وفى قصة موسى مع العبد الصالح عند مايكشف له عن سر تصرفاته التى أنكرها عليه موسى يقول : « رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى » فيكل الأمر فيها لله .

* * *

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة ، فيرد فى مواضع متفرقة ، حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح ، ويصغر ماعداها من القيم الأرضية الدنيوية التى تبهر الأنظار .

فكل ماعلى الأرض من زينة إنما جعل للابتلاء والاختبار ، ونهايته إلى فناء وزوال : «إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا» .

وحمى الله أوسع وأرحب ، ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق . والفتية المؤمنون أصحاب الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم : « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلا الله ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مرفقا »

والخطاب يوجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر نفسه مع أهل الإيمان ؛ غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن

ذكرنا ؛ واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل: الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» .

وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه فى وجه المال والجاه والزينة . وكيف يجبه صاحبها المتنفش المتنفخ بالحق ، ويؤنبه على نسيان الله : «قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ، ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا » .

وعقب القصة يضرب مثلا للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا » .

ويعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية : «المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

وذو القرنين لا يذكر لأنه ملك ، ولكن يذكر لأعماله الصالحة . وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السدين أن يبنى لهم سدا يحميهم من يأجوج ومأجوج فى مقابل أن يعطوه مالا ، فإنه يرد عليهم ما عرضوه من المال ، لأن تمكين الله له خير من أموالهم « قال : مامكنى فيه ربى خير » . وحين يتم السد يرد الأمر لله لا لقوته البشرية :« قال : هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا » .

وفى نهاية السورة يقرر أن أخسر الخلق أعمالا ، هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ؛ وهؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعا : « قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » .

وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة . وتصحيح منهج الفكر والنظر . وتصحيح القيم بميزان العقيدة .

***

ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية فى أشواط متتابعة :

تبدأ السورة بالحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب للإنذار والتبشير . تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ؛ وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار ، والنهاية إلى زوال وفناء . ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف . وهى نموذج لإيثار الإيمان على

باطل الحياة وزخرفها ، والالتجاء إلى رحمة الله فى الكهف ، هربا بالعقيدة أن تمس .

ويبدأ الشوط الثانى بتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وأن يغفل الغافلين عن ذكر الله . . ثم تجىء قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله ، واستصغاره لقيم الأرض .. وينتهى هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية .

والشوط الثالث يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة قصة آدم وإبليس . . وينتهى ببيان سنة الله فى إهلاك الظالمين ، ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم .

وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع . وقصة ذى القرنين الشوط الخامس .

ثم تختم السورة بمثل ما بدأت : تبشيرا للمؤمنين وإنذارا للكافرين ، وإثباتا للوحى وتنزيها لله عن الشريك .

فلنأخذ فى الشوط الأول بالتفصيل :

* * *

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما . لينذر بأساً شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ، مالهم به من علم ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كذبا . فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا . . إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » . . .

بدء فيه استقامة ، وفيه صرامة . وفيه حمد لله على إنزاله الكتاب « على عبده » بهذه الاستقامة ، لا عوج فيه ولا التواء ،ولامداراة ولا مداورة : « لينذر بأسا شديدا من لدنه » .

ومنذ الآية الأولى تتضح المعالم ، فلا لبس فى العقيدة ولا غموض : الله هو الذى أنزل الكتاب ، والحمد له على تنزيله . ومحمد هو عبد لله . فالكل إذن عبيد . وليس لله من ولد ولا شريك .

والكتاب لا عوج له . . « قيما » . . يتكرر معنى الاستقامة مرة عن طريق نفى العوج ، ومرة عن طريق إثبات الاستقامة . توكيدا لهذا المعنى وتشديدا فيه .

والغرض من إنزال الكتاب واضح صريح : « لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا » .

ويغلب ظل الإنذار الصارم فى التعبير كله . فهو يبدأ به على وجه الإجمال : « لينذر بأسا شديدا من لدنه » . ثم يعود إليه على وجه التخصيص : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ».. وبينهما تبشير للمؤمنين « الذين يعملون الصالحات » بهذا القيد الذى يجعل للإيمان دليله العملى الظاهر المستند إلى الواقع الأكيد .

ثم يأخذ فى كشف المنهج الفاسد الذى يتخذونه للحكم على أكبر القضايا وأخطرها . قضية العقيدة :

« ما لهم به من علم ولا لآبائهم » . .

فما أشنع وما أفظع أن يفضوا بهذا القول بغير علم ، هكذا جزافا :

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » . .

وتشترك الألفاظ بنظمها فى العبرة وجرسها فى النطق فى تفظيع هذه الكلمة التى يقولونها. فهو يبدأ بكلمة « كبرت » لتجبه السامع بالضخامة والفظاعة وتملأ الجو بهما . ويجعل الكلمة الكبيرة تمييزاً لضميرها فى الجملة : « كبرت كلمة » زيادة فى توجيه الانتباه إليها . ويجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجا كأنما تنطلق منها جزافا وتندفع منها اندفاعا « تخرج من أفواههم » . وتشارك لفظة « أفواههم » بجرسها الخاص فى تكبير هذه الكلمة وتفظيعها ، فالناطق بها يفتح فاه فى مقطعها الأول بما فيه من مد : « أفوا . . . » ثم تتوالى الهاءان فيمتلىء الفم بهما قبل أن يطبق على الميم فى نهاية اللفظة : « أفواههم » . وبذلك يشترك نظم الجملة وجرس اللفظة فى تصوير المعنى ورسم الظل . ويعقب على ذلك بالتوكيد عن طريق النفى والاستثناء : « إن يقولون إلا كذبا » : ويختار للنفى كلمة : « إن » لا كلمة « ما » لأن فى الأولى صرامة بالسكون الواضح ، وفى لفظ « ما » شىء من الليونة بالمد . . وذلك لزيادة التشديد فى الاستنكار ، ولزيادة التوكيد لكذب هذه الكلمة الكبيرة . .

* * *

وفيما يشبه الإنكار يخاطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كان يحزنه أن يكذب قومه بالقرآن ويعرضوا عن الهدى ، ويذهبوا فى الطريق الذى يعلم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه مود بهم إلى الهلاك . . فيما يشبه الإنكار يقال للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم . إن لم يؤمنوا بهذا الحديث . أسفا » !

أى فلعلك قاتل نفسك أسفا وحزنا عليهم ، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن . وما يستحق هؤلاء

أن تحزن عليهم وتأسف . فدعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع ، وأموال وأولاد . . جعلناه اختبارا وامتحانا لأهلها ، ليتبين من يحسن منهم العمل فى الدنيا ، ويستحق نعمتها ، كما يستحق نعيم الآخرة :

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .

والله يعلم . ولكنه يجزى على ما يصدر من العباد فعلا ، وما يتحقق منهم فى الحياة عملا. ويسكت عمن لا يحسنون العمل فلا يذكرهم لأن مفهوم التعبير واضح .

ونهاية هذه الزينة محتومة . فستعود الأرض مجردة منها ، وسيهلك كل ما عليها ، فتصبح قبل يوم القيامة سطحا أجرد خشنا جدبا :

« وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » . .

وفى التعبير صرامة ، وفى المشهد الذى يرسمه كذلك . وكلمة « جرزا » تصور معنى الجدب بجرسها اللفظى . كما أن كلمة « صعيدا » ترسم مشهد الاستواء والصلادة !

* * *

ثم تجىء قصة أصحاب الكهف ، فتعرض نموذجا للإيمان فى النفوس المؤمنة . كيف تطمئن به ، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها ، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس . وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ، ويشملها بالرحمة .

وفى القصة روايات شتى ، وأقاويل كثيرة. فقد وردت فى بعض الكتب القديمة وفى الأساطير بصور شتى . ونحن نقف فيها عند حد ما جاء فى القرآن ، فهو المصدر الوحيد المستيقن . ونطرح سائر الروايات والأساطير التى اندست فى التفاسير بلا سند صحيح . وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها ، وعن المراء فيها والجدل رجما بالغيب .

وقد ورد فى سبب نزولها ونزول قصة ذى القرنين أن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهما وعن الروح . أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يكون هذا كله أو بعضه صحيحا . فقد جاء فى أول قصة ذى القرنين : « ويسألونك عن ذى القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذكرا » ولكن لم تجىء عن قصة أصحاب الكهف مثل هذه الإشارة . فنحن نمضى فى القصة لذاتها وهى واضحة الارتباط بمحور السورة كما بينا .

* * *

إن الطريقة التي اتبعت في عرض هذه القصة من الناحية الفنية هي طريقة التلخيص الإجمالي أولا ، ثم العرض التفصيلي أخيرا . وهي تعرض في مشاهد وتترك بين المشاهد فجوات يعرف ما فيها من السياق[1] . وهي تبدأ هكذا :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا » .

وهو تلخيص يجمل القصة ، ويرسم خطوطها الرئيسية العريضة . فنعرف أن أصحاب الكهف فتية — لا نعلم عددهم — آووا إلى الكهف وهم مؤمنون . وأنه ضرب على آذانهم في الكهف — أي ناموا — سنين معدودة — لا نعلم عددها — وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة . وأنه كان هناك فريقان يتجادلان في شأنهم ثم لبثوا في الكهف فبعثوا ليتبين أي الفريقين أدق إحصاء . وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله . وفي صفحات هذا الكون من العجائب وفي ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم[2] .

وبعد هذا التلخيص المشوق للقصة يأخذ السياق في التفصيل . ويبدأ هذا التفصيل بأن ما سيقصه الله منها هو فصل الخطاب في الروايات المتضاربة ، وهو الحق اليقين :

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق . إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها . لقد قلنا إذن شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون — إلا الله — فأووا إلى الكهف ، ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مرفقا » .

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة . « إنهم فتية آمنوا بربهم » . . « وزدناهم هدى » بإلهامهم كيف يدبرون أمرهم . « وربطنا على قلوبهم » فإذا هي ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذي عرفت . معتزة بالإيمان الذي اختارت « إذ قاموا » . . والقيام حركة تدل على العزم والثبات . « فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض » . . فهو رب هذا الكون كله « لن ندعو من دونه إلها » . . فهو واحد بلا شريك . « لقد قلنا إذن شططا » .. وتجاوزنا الحق وحدنا عن الصواب .

---

(١) يراجع فصل « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

(٢) الكهف : الفجوة في الصخر ، والرقيم — في الغالب — هو الكتاب الذي يحمل أسماءهم وربما كان هو الذي وضع على باب الكهف الذي عثر عليهم فيه .

ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه ، ويستنكرون النهج الذى يسلكونه فى تكوين العقيدة :

« هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ؟ » . .

فهذا هو طريق الاعتقاد : أن يكون للإنسان دليل قوى يستند إليه ، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول . وإلا فهو الكذب الشنيع ، لأنه الكذب على الله : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ » . .

وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحا صريحا حاسما ، لا ترددفيه ولا تلعثم .. إنهم فتية ، أشداء فى أجسامهم ، أشداء فى إيمانهم . أشداء فى استنكار ما عليه قومهم ..

ولقد تبين الطريقان ، واختلف المنهجان ، فلا سبيل إلى الالتقاء ، ولا للمشاركة فى الحياة. ولا بد من الفرار بالعقيدة . إنهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل . إنما هم فتية تبين لهم الهدى فى وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويداوروهم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف . فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة . وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم :

« وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون — إلا الله — فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مرفقا » . .

وهنا ينكشف العجب فى شأن القلوب المؤمنة . فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ، ويفارقون أهلهم . ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة . هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم . هؤلاء يستروحون رحمة الله . ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة . « ينشر لكم ربكم من رحمته » ولفظة « ينشر » يلقى ظلال السعة والبحبوحة والانفساح. فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء .. إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترق ، وإن الوحشة الموغلة لتشف ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .

إنه الإيمان . .

وما قيمة الظواهر ؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التى تعارف عليها الناس فى حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك عالما آخر فى جنبات القلب المعمور بالإيمان ، المأنوس بالرحمان . عالما تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان .

ويسدل الستار على هذا المشهد . ليرفع على مشهد آخر والفتية فى الكهف وقد ضرب الله عليهم النعاس .

* * *

« وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه . ذلك من آيات الله . من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . وتحسبهم أيقاظا وهم رقود . ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ، ولملئت منهم رعبا » .

وهو مشهد تصويرى عجيب ، ينقل بالكلمات هيئة الفتية فى الكهف ، كما يلتقطها شريط متحرك . والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها متعمدة . ولفظ « تزاور » تصور مدلولها وتلقى ظل الإرادة فى عملها . والشمس تغرب فتجاوزهم إلى الشمال وهم فى فجوة منه ..

وقبل أن يكمل نقل المشهد العجيب يعلق على وضعهم ذاك بأحد التعليقات القرآنية التى تتخلل سياق القصص لتوجيه القلوب فى اللحظة المناسبة[1] :

« ذلك من آيات الله » .. وضعهم هكذا فى الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها . وهم فى مكانهم لا يموتون ولا يتحركون .

« من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » . . وللهدى والضلال ناموس . فمن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المهتدى حقا . ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل ، وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهى فقد أضله الله إذن ، ولن تجد له من بعد هاديا .

ثم يمضى السياق يكمل المشهد العجيب . وهم يقلبون من جنب إلى جنب فى نومتهم الطويلة . فيحسبهم الرائى أيقاظا وهم رقود . وكلبهم — على عادة الكلاب — باسط ذراعيه بالفناء قريبا من باب الكهف كأنه يحرسهم . وهم فى هيئتهم هذه يثيرون الرعب فى قلب من يطلع عليهم . إذ يراهم نياما كالأيقاظ ، يتقلبون ولا يستيقظون . وذلك من تدبير الله كى لا يعبث بهم عابث ، حتى يحين الوقت المعلوم .

* * *

وفجأة تدب فيهم الحياة . فلننظر ولنسمع :

---

(١) فصل القصة القرآن .

« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم . قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذن أبدا » ..

إن السياق يحتفظ بالمفاجأة فى عرض القصة ، فيعرض هذا المشهد ، والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس . . إنهم يفركون أعينهم ، ويلتفت أحدهم إلى الآخرين فيسأل : كم لبثتم ؟ كما يسأل من يستيقظ من نوم طويل . ولا بد أنه كان يحس بآثار نوم طويل . « قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم » !

ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التى لا طائل وراء البحث فيها ، ويدعوا أمرها لله ـ شأن المؤمن فى كل ما يعرض له مما يجهله ـ وأن يأخذوا فى شأن عملى . فهم جائعون . ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة : « قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ، فليأتكم برزق منه » .. أى فليختر أطيب طعام فى المدينة فليأتكم بشىء منه .

وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم ويعرف مخبؤهم ، فيأخذهم أصحاب السلطان فى المدينة فيقتلوهم رجما ـ بوصفهم خارجين على الدين لأنهم يعبدون إلها واحدا فى المدينة المشركة ! ـ أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب . وهذه هى التى يتقونها . لذلك يوصون الرسول أن يكون حذرا لبقا : « وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذن أبدا » . . فما يفلح من يرتد عن الإيمان إلى الشرك ، وإنها للخسارة الكبرى .

وهكذا نشهد الفتية يتناجون فيما بينهم ، حذرين خائفين ، لا يدرون أن الأعوام قد كرت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن المتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد دالت دولتهم ، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم فى عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ؛ وأن الأقاويل حولهم متعارضة ؛ حول عقيدتهم ، وحول الفترة التى مضت منذ اختفائهم .

وهنا يسدل الستار على مشهدهم فى الكهف ليرفع على مشهد آخر . وبين المشهدين فجوة متروكة فى السياق القرآنى .

ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون ، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام ، وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهد بعيد .

ولنا أن نتصور ضخامة المفاجأة التى اعترت الفتية ـ بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها ؛ وأن الدنيا قد تبدلت من حولهم فلم يعد لشىء مما ينكرونه ولا لشىء مما يعرفونه وجود ! وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون . وأنهم أعجوبة فى نظر الناس وحسهم ، فلن يمكن أن يعاملوهم كبشر عاديين . وأن كل مايربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد .. كله قدتقطع ، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية .. فيرحمهم الله من هذا كله فيتوفاهم .

لنا أن نتصور هذا كله . أما السياق القرآنى فيعرض المشهد الأخير ، مشهد وفاتهم ، والناس خارج الكهف يتنازعون فى شأنهم : على أى دين كانوا ، وكيف يخلدونهم ويحفظون ذكراهم للأجيال . ويعهد مباشرة إلى العبرة المستقاة من هذا الحادث العجيب :

«وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجدا » ..

إن العبرة فى خاتمة هؤلاء الفتية هى دلالتها على البعث بمثل واقعى قريب محسوس . يقرب إلى الناس قضية البعث . فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .. وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم .

وقال بعض الناس : « ابنوا عليهم بنيانا » لا يحدد عقيدتهم « ربهم أعلم بهم » وبما كانوا عليه من عقيدة . وقال أصحاب السلطان فى ذلك الأوان : « لنتخذن عليهم مسجدا» والمقصود معبد ، على طريقة اليهود والنصارى فى اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين . وكما يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » [1] .

ويسدل الستار على هـذا المشهد . ثم يرفع لنسمع الجدل حول أصحاب الكهف ـ على عادة الناس يتناقلون الروايات والأخبار ، ويزيدون فيها وينقصون ، ويضيفون إليها من خيالهم جيلا بعد جيل ، حتى تتضخم وتتحول ، وتكثر الأقاويل حول الخبر الواحد أو الحادث الواحد كلما مرت القرون :

« سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم ـ رجما بالغيب ،

(١) أورده ابن كثير فى التفسير .

ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم . قل : ربى أعلم بعدتهم . مايعلمهم إلا قليل . فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا » ..

فهذا الجدل حول عدد الفتية لا طائل وراءه . وإنه ليستوى أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، أو أكثر . وأمرهم موكول إلى الله ، وعلمهم عند الله . وعند القليلين الذين تثبتوا من الحادث عند وقوعه أو من روايته الصحيحة . فلا ضرورة إذن للجدل الطويل حول عددهم . والعبرة فى أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير . لذلك يوجه القرآن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ترك الجدل فى هذه القضية ، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين فى شأنهم . تمشيا مع منهج الإسلام فى صيانة الطاقة العقلية أن تبدد فى غير مايفيد . وفى ألا يقفو المسلم ماليس له به علم وثيق . وهذا الحادث الذى طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله ، فليترك إلى علم الله .

وبمناسبة النهى عن الجدل فى غيب الماضى ، يرد النهى عن الحكم على غيب المستقبل ومايقع فيه ؛ فالإنسان لا يدرى مايكون فى المستقبل حتى يقطع برأى فيه :

« ولا تقولن لشىء : إنى فاعل ذلك غدا ـ إلا أن يشاء الله ـ واذكر ربك إذا نسيت ، وقل : عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا » ..

إن كل حركة وكل نأمة ، بل كل نفس من أنفاس الحى ، مرهون بإرادة الله . وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ؛ وعين الإنسان لا تمتد إلى ماوراء الستر المسدل ؛ وعقله مها علم قاصر كليل . فلا يقل إنسان : إنى فاعل ذلك غدا . وغدا فى غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب .

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ، لا يفكر فى أمر المستقبل ولا يدبر له ؛ وأن يعيش يوما بيوم ، ولحظة بلحظة . وألا يصل ماضى حياته بحاضره وقابله .. كلا . ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التى تدبره ؛ وأن يعزم مايعزم ويستعين بمشيئة الله على مايعزم ، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره . فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فبها . وإن جرت مشيئة الله بغير مادبر لم يحزن ولم ييأس ، لأن الأمر لله أولا وأخيرا .

فليفكر الإنسان وليدبر ؛ ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله ، ويدبر بتوفيق الله ، وأنه لا يملك إلا مايمده الله به من تفكير وتدبير . ولن يدعو هذا إلى كسل أو تراخ ، أو ضعف أو فتور ؛ بل على العكس يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة . فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير لله غير تدبيره ، فليتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام . لأنه الأصل الذى كان مجهولا له فكشف عنه الستار .

هذا هو المنهج الذى يأخذ به الإسلام قلب المسلم . فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر . ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح . ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق . بل يبقى فى كل أحواله متصلا بالله ، قويا بالاعتماد عليه ، شاكرا لتوفيقه إياه ، مسلما بقضائه وقدره . غير متبطر ولا قنوط .

« واذكر ربك إذا نسيت » .. إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذكر ربك وارجع إليه .

« وقل : عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا » .. من هذا النهج الذى يصل القلب دائما بالله ، فى كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه .

وتجىء كلمة « عسى » وكلمة « لأقرب » للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه فى جميع الأحوال .

* * *

وإلى هنا لم نكن نعلم : كم لبث الفتية فى الكهف . فلنعرفه الآن لنعرفه على وجه اليقين :

« ولبثوا فى كهفهم ثلاث مئة سنين ، وازدادوا تسعا . قل : الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض . أبصر به وأسمع » ..

فهذا هو فصل الخطاب فى أمرهم ، يقرره عالم غيب السماوات والأرض . ماأبصره ، وماأسمعه ! سبحانه . فلا جدال بعد هذا ولا مراء .

* * *

ويعقب على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأثر فى سير القصة وأحداثها : « مالهم من دونه من ولى . ولا يشرك فى حكمه أحدا » . .

وبتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى تلاوة ماأوحاه ربه إليه ، وفيه فصل الخطاب — وهو الحق الذى لايأتيه الباطل — والاتجاه إلى الله وحده ، فليس من حمى إلا حماه . وقد فر إليه أصحاب الكهف فشملهم برحمته وهداه :

« واتل ماأوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ، ولن تجد من دونه ملتحدا » ..

وهكذا تنتهى القصة ، تسبقها وتتخللها وتعقبها تلك التوجيهات التى من أجلها يساق القصص فى القرآن . مع التناسق المطلق بين التوجيه الدينى والعرض الفنى فى السياق .

« وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ : ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ ، بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ . نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا .

« وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا .

« وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ ـ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ـ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ـ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ـ قَالَ : مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا .

« قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ـ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ـ : أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ؟ * لَٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ ٱللَّهُ ! لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا .

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ، وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً .

« وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً ، وَخَيْرٌ أَمَلًا » . .

هذا الدرس كله تقرير للقيم فى ميزان العقيدة . إن القيم الحقيقية ليست هى المال ، وليست هى الجاه ، وليست هى السلطان . كذلك ليست هى اللذائذ والمتاع فى هذه الحياة . . إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة . والإسلام لا يحرم الطيب منها ؛ ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان . فمن شاء أن يتمتع بها فليتمتع ، ولكن ليذكر الله الذى أنعم بها . وليشكره على النعمة بالعمل الصالح ، فالباقيات الصالحات خير وأبقى .

وهو يبدأ بتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يصبر نفسه مع الذين يتجهون إلى الله ؛ وأن يغفل ويهمل الذين يغفلون عن ذكر الله . ثم يضرب للفريقين مثلا رجلين : أحدهما يعتز بما أوتى من مال وعزوة ومتاع . والآخر يعتز بالإيمان الخالص ، ويرجو عند ربه ما هو خير . ثم يعقب بمثل يضرب للحياة الدنيا كلها ، فإذا هى قصيرة زائلة كالهشيم تذروه الرياح . وينتهى من ذلك كله بتقرير الحقيقة الباقية : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » . .

* * *

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل : الحق من ربكم . فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر » . .

يروى أنها نزلت فى أشراف قريش ، حين طلبوا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود إذا كان يطمع فى إيمان رؤوس قريش . أو أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس هؤلاء النفر ، لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق ، فتؤذى السادة من كبراء قريش !

ويروى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ طمع فى إيمانهم فحدثته نفسه فيما طلبوا إليه . فأنزل الله عز وجل : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ... » أنزلها تعلن عن القيم الحقيقية ، وتقيم الميزان الذى لا يخطىء . وبعد ذلك « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فالإسلام لا يتملق أحدا ، ولا يزن الناس بموازين الجاهلية الأولى ، ولا أية جاهلية تقيم للناس ميزانا غير ميزانه .

« واصبر نفسك » . . لا تمل ولا تستعجل « مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » . . فالله غايتهم ، يتجهون إليه بالغداة والعشى ، لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه . وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاب الحياة .

اصبر نفسك مع هؤلاء . صاحبهم وجالسهم وعلمهم . ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات. فالدعوات لاتقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة ؛ ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع؛ ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها فى سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التى تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبغى جاها ولا متاعا ولا انتفاعا ، إنما تبتغى وجهه وترجو رضاه .

« ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » . . ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التى يستمتع بها أصحاب الزينة . فهذه زينة الحياة « الدنيا » لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالى الذى يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » .. لاتطعهم فيما يطلبون من تميز بينهم وبين الفقراء . فلو ذكروا الله لطامنوا من كبريائهم ، وخفضوا من غلوائهم ، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة ، واستشعروا جلال الله الذى تتساوى فى ظله الرؤوس ؛ وأحسوا رابطة العقيدة التى يصبح بها الناس إخوة . ولكنهم إنما يتبعون أهواءهم. أهواء الجاهلية . ويحكمون مقاييسها فى العباد . فهم وأقوالهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله .

لقد جاء الإسلام ليسوى بين الرؤوس أمام الله . فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه .

فهذه قيم زائفة ، وقيم زائلة . إنما التفاضل بمكانها عند الله . ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له . وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » . . أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته ، وإلى ماله ، وإلى أبنائه ، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته ، فلم يعد فى قلبه متسع لله . والقلب الذى يشتغل بهذه الشواغل ، ويجعلها غاية حياته لاجرم يغفل عن ذكر الله ، فيزيده الله غفلة ، ويملى له فيما هو فيه ، حتى تفلت الأيام من بين يديه ، ويلقى ما أعده الله لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ، ويظلمون غيرهم :

« وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . .

بهذه العزة ، وبهذه الصراحة ، وبهذه الصرامة ، فالحق لا ينثنى ولا ينحنى ، إنما يسير فى طريقه قيما لا عوج فيه ، قويا لاضعف فيه ، صريحا لامداورة فيه . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن لم يعجبه الحق فليذهب ، ومن لم يجعل هواه تبعا لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة ؛ ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه أمام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه .

إن العقيدة ليست ملكا لأحد حتى يجامل فيها . إنما هى ملك لله ، والله غنى عن العالمين . والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصة ، ولا يأخذونها كما هى بلا تحوير . والذى يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين .

* * *

ثم يعرض ما أعد للكافرين ، وما أعد للمؤمنين فى مشهد من مشاهد القيامة :

« إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ؛ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفقا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ؛ ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب وحسنت مرتفقا » .

« إنا أعتدنا للظالمين نارا » . . أعددناها وأحضرناها . . فهى لا تحتاج إلى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمنا لإعدادها ! ومع أن خلق أى شىء لا يقتضى إلا كلمة الإرادة : كن . فيكون . إلا أن التعبير هنا بلفظ « أعتدنا » يلقى ظل السرعة والتهيؤ والاستعداد ،

والأخذ المباشر إلى النار المعدة المهيأة للاستقبال !

وهى نار ذات سرادق يحيط بالظالمين ، فلاسبيل إلى الهرب ، ولا أمل فى النجاة والإفلات . ولا مطمع فى منفذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيه استرواح !

فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أغيثوا . . أغيثوا بماء كدردى الزيت المغلى فى قول ، وكالصديد الساخن فى قول ! يشوى الوجوه بالقرب منها فكيف بالحلوق والبطون التى تتجرعه « بئس الشراب » الذى يغاث به الملهوفون من الحريق ! ويا لسوء النار وسرادقها مكانا للارتفاق والاتكاء . وفى ذكر الارتفاق فى سرادق النار تهكم مرير . فما هم هنالك للارتفاق ، إنما هم للاشتواء ! ولكنها مقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات هنالك فى الجنان . . وشتان شتان !

وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات عدن . للإقامة . تجرى من تحتهم الأنهار بالرى وبهجة المنظر واعتدال النسيم . وهم هنالك للارتفاق حقا « متكئين فيها على الأرائك » وهم رافلون فى ألوان من الحرير . من سندس ناعم خفيف ومن إستبرق مخمل كثيف . تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع : « نعم الثواب وحسنت مرتفقا » !

ومن شاء فليختر . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن شاء فليجالس فقراء المؤمنين ، وجبابهم تفوح منها رائحة العرق أو فلينفر . فمن لم ترضه رائحة العرق من تلك الجباب ، التى تضم القلوب الزكية بذكر الله ، فليرتفق فى سرادق النار ، وليهنأ بدردى الزيت أو القيح يغاث به من النار . .

* * *

ثم تجىء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلا للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله . وكلاهما نموذج إنسانى لطائفة من الناس : صاحب الجنتين نموذج للرجل الثرى ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة . ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فلن تخذله القوة ولا الجاه . وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلا على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره .

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين فى ازدهار وفخامة :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا

بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا . وكان له ثمر» ..

فهما جنتان مثمرتان من الكروم ، محفوفتان بسياج من النخيل ، تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر . . إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال :

« كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا » . . ويختار التعبير كلمة « تظلم » فى معنى تنقص وتمنع ، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذى ظلم نفسه فبطر ولم يشكر ، وازدهى وتكبر .

وهاهو ذا صاحب الجنتين تمتلىء نفسه بهما ، ويزدهيه النظر إليهما ، فيحس بالزهو ، وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ، ويتعالى على صاحبه الفقير : « فقال لصاحبه — وهو يحاوره — أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » ..

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور ؛ وقد نسى الله ، ونسى أن يشكره على ماأعطاه ؛ وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدا ، وأنكر قيام الساعة أصلا ، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار ! أليس من أصحاب الجنان فى الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظا فى الآخرة !

«ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال : ماأظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة . ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا » !

إنه الغرور يخيل لذوى الجاه والسلطان والمتاع والثراء ، أن القيم التى يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى فى الملأ الأعلى ! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ !

فأما صاحبه الفقير الذى لا مال له ولا نفر ، ولا جنة عنده ولا ثمر .. فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى . معتز بعقيدته وإيمانه . معتز بالله الذى تعنو له الجباه ؛ فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكرا عليه بطره وكبره ، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى الأدب الواجب فى حق المنعم . وينذره عاقبة البطر والكبر . ويرجو عند ربه ماهو خير من الجنة والثمار :

« قال له صاحبه — وهو يحاوره — أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ماشاء الله لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ، ويرسل عليها حسبانا[١] من السماء فتصبح صعيدا زلقا[٢] ، أو يصبح ماؤها غورا[٣] فلن تستطيع له طلبا » ..

---

(١) سيل مدمر يقتل أشجارها ويهلكها (٢) سطحا أجرد تزل فيه القدم (٣) غائرا وهو ضد النابع .

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلا تبالى المال والنفر ، ولا تدارى الغنى والبطر ، ولا تتلعثم في الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال ، وأن ماعند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله . وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين .

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار . ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار . فلقد كان ماتوقعه الرجل المؤمن :

« وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ماأنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ، ويقول : ياليتني لم أشرك بربي أحدا » ..

وهو مشهد شاخص كامل : الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء . والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة. وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب . وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته . ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن ، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان .

هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة : فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره . وثوابه هو خير الثواب ، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير مايتبقى :

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا . هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا » ..

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها ، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفا وندما ، وجلال الله يظلل الموقف ، حيث تتوارى قدرة الإنسان ..

* * *

وأمام هذا المشهد يضرب مثلا للحياة الدنيا كلها . فإذا هي كتلك الجنة المضروبة مثلا قصيرة قصيرة ، لا بقاء لها ولا قرار :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا » ..

هذا المشهد يعرض قصيرا خاطفا ليلقى في النفس ظل الفناء والزوال . فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض . والنبات لاينمو ولا ينضج ، ولكنه

يصبح هشيما تذروه الرياح . وما بين ثلاث جمل قصار ، ينتهى شريط الحياة .

ولقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشاهد . بالتعقيب الذى تدل عليه الفاء :

« ماء أنزلناه من السماء » ف « اختلط به نبات الأرض » ف « أصبح هشيما تذروه الرياح»

فما أقصرها حياة ! وما أهونها حياة !

وبعد أن يلقى مشهد الحياة الذاهبة ظله فى النفس يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التى يتعبدها الناس فى الأرض ، والقيم الباقية التى تستحق الاهتمام :

«المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا ، وخير أملا»..

المال والبنون زينة الحياة ؛ والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة فى حدود الطيبات . ولكنه يعطيهما القيمة التى تستحقها الزينة فى ميزان الخلود ولا يزيد .

إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة . فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسها فى الحياة . إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات .

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثوابا وخير أملا . عند ما تتعلق بها القلوب ، ويناط بها الرجاء ، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء .

* * *

وهكذا يتناسق التوجيه الإلهى للرسول — صلى الله عليه وسلم — فى أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم فى الغداة والعشى يريدون وجهه . مع إيحاء قصة الجنتين . مع ظل المثل المضروب للحياة الدنيا . مع هذا التقرير الأخير للقيم فى الحياة وما بعد الحياة . . وتشترك كلها فى تصحيح القيم بميزان العقيدة . وتتساوق كلها فى السورة وفق قاعدة التناسق الفنى والتناسق الوجدانى فى القرآن[1] .

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ، وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا : لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ :

(١) يراجع فصل « التناسق الفنى » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ؟ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً .

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ . بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا * مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ، وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً .

« وَيَوْمَ يَقُولُ : نَادُوا شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً * وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً .

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا * وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ، وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا * وَتِلْكَ ٱلْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً » .

انتهى الدرس السابق بالحديث عن الباقيات الصالحات ؛ فهنا يصله بوصف اليوم الذى يكون للباقيات الصالحات وزن فيه وحساب ، يعرضه فى مشهد من مشاهد القيامة . ويتبعه فى السياق بإشارة إلى ما كان من إبليس يوم أمر بالسجود لآدم ففسق عن أمر ربه للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون الشياطين أولياء ، وقد علموا أنهم لهم أعداء ، وبذلك ينتهون إلى العذاب فى يوم الحساب . ويعرج على الشركاء الذين لا يستجيبون لعبادهم فى ذلك اليوم الموعود .

هذا وقد صرف الله فى القرآن الأمثال للناس ليقوا أنفسهم شر ذلك اليوم ، ولكنهم لم يؤمنوا ، وطلبوا أن يحل بهم العذاب أو أن يأتيهم الهلاك الذى نزل بالأمم قبلهم . وجادلوا بالباطل ليغلبوا به الحق ، واستهزأوا بآيات الله ورسله . ولولا رحمة الله لعجل لهم العذاب ..

هذا الشوط من مشاهد القيامة ، ومن مصارع المكذبين يرتبط بمحور السورة الأصيل فى تصحيح العقيدة ، وبيان ماينتظر المكذبين ، لعلهم يهتدون .

* * *

« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا . لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ؛ ويقولون : ياويلتنا ! مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟ ووجدوا ماعملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » .

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب . مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير ، فكيف بالقلوب ، وتتبدى فيه الأرض عارية ، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد ، ولا جبال فيها ولا وديان . وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية » .

ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التى لا تخبىء شيئاً ، ولا تخفى أحدا : « وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا » .

ومن الحشر الجامع الذى لا يخلف أحدا إلى العرض الشامل : «وعرضوا على ربك صفا».. هذه الخلائق التى لا يحصى لها عدد ، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا .. هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة ، لم يتخلف منها أحد ، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفى أحدا .

وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب . فكأنما المشهد حاضر اللحظة ، شاخص نراه ونسمع مايدور فيه . ونرى الخزى على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا » .

هذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسمه . كأنما هو حاضر اللحظة ، لا مستقبل فى ضمير الغيب فى يوم الحساب .

وإننا لنكاد نلمح الخزى على الوجوه ، والذل فى الملامح . وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون : « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا » !

وبعد إحياء المشهد واستحضاره بهذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يعود إلى وصف ماهناك :

«ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه » فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق . وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذى لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولاصغيرة : «ويقولون : ياويلتنا. مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها ؟ » وهى قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب ، وقد ضبط مكشوفا لا يملك تفلتا ولا هربا ، ولا مغالطة ولا مداورة : « ووجدوا ما عملوا حاضرا » ولاقوا جزاء عادلا : «ولا يظلم ربك أحدا» ..

* * *

هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدو لهم ، ولكنهم تولوه فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب . فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس :

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ، وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا » .

وهذه الإشارة إلى تلك القصة القديمة تجىء هنا للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون ذرية إبليس أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم .

واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل فى تلبية دواعى المعصية والتولى عن دواعى الطاعة.

ولماذا يتولون أعداءهم هؤلاء ، وليس لديهم علم ولا لهم قوة . فالله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه . والله لا يتخذهم عضدا فتكون لهم قوة :

« ماأشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا» ..

إنما هم خلق من خلق الله ، لا يعلمون غيبه ، ولا يستعين بهم سبحانه ..

« وما كنت متخذ المضلين عضدا » فهل يتخذ الله سبحانه غير المضلين عضدا ؟

وتعالى الله الغنى عن العالمين ، ذو القوة المتين .. إنما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين لتتبعها واستئصالها . فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله ، إنما يسلكون هذا المسلك توهما منهم أن للشيطان علما خفيا ، وقوة خارقة . والشيطان مضل ، والله يكره الضلال والمضلين . فلو أنه ـ على سبيل الفرض والجدل ـ كان متخذا له مساعدين ، لما اختارهم من المضلين !

وهذا هو الظل الذى يراد أن يلقيه التعبير ..

ثم يعرض مشهد من مشاهد القيامة يكشف عن مصير الشركاء ومصير المجرمين :

« ويوم يقول : نادوا شركائى الذين زعمتم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم . وجعلنا بينهم موبقا . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفا » ..

إنهم فى الموقف الذى لا تجدى فيه دعوى بلا برهان . والديان يطالبهم أن يأتوا بشركائهم الذين زعموا ، ويأمرهم أن يدعوهم ليحضروا . . وإنهم لفى ذهول ينسون أنها الآخرة ، فينادون . ولكن الشركاء لا يجيبون ! وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا فى الموقف المرهوب . وقد جعل الله بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء .. إنها النار « وجعلنا بينهم موبقا » .

ويتطلع المجرمون ، فتمتلىء نفوسهم بالخوف والهلع ، وهم يتوقعون فى كل لحظة أن يقعوا فيها . وما أشق توقع العذاب وهو حاضر ، وقد أيقنوا أن لا نجاة منها ولا محيص :

«ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفا »

* * *

ولقد كان لهم عنها مصرف ، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن ، ولم يجادلوا فى الحق الذى جاء به ، وقد ضرب الله لهم فيه الأمثال ونوعها لتشمل جميع الأحوال :

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » . .

ويعبر السياق عن الإنسان فى هذا المقام بأنه « شىء » وأنه أكثر شىء جدلا . ذلك كى يطامن الإنسان من كبريائه ، ويقلل من غروره ، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة. وأنه أكثر هذه الخلائق جدلا . بعد ما صرف الله فى هذا القرآن من كل مثل .

ثم يعرض الشبهة التى تعلق بها من لم يؤمنوا ــ وهم كثرة الناس ــ على مدار الزمان والرسالات :

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلا » . .

فلقد جاءهم من الهدى ما يكفى للاهتداء . ولكنهم كانوا يطلبون أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم من هلاك ــ استبعادا لوقوعه واستهزاء ــ أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم . وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون !

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل . فأخذ المكذبين بالهلاك ــ كما جرت سنة الله

فى الأولين بعد مجىء الخوارق وتكذيبهم بها ـ أو إرسال العذاب . . كله من أمر الله . أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون :

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق . واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا » .

والحق واضح . ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه . وهم حين يطلبون الخوارق ، ويستعجلون بالعذاب لا يبغون اقتناعا ، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون .

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه . إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبدا » ..

فهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن ، ولا أن ينتفعوا به . لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه ، وجعل فى آذانهم كالصمم فلايستمعون إليه . وقدر عليهم الضلال ـ بسبب استهزائهم وإعراضهم ـ فلن يهتدوا إذن أبدا . فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقى .

« وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب » . .

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم، ويؤخر عنهم الهلاك الذى يستعجلون به ، ولكنه لن يهملهم :

« بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا » . .

موعد فى الدنيا يحل بهم فيه شىء من العذاب . وموعد فى الآخرة يوفون فيه الحساب .

ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم . لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم ، لحكمة اقتضتها إرادته فيهم ، فلم يأخذهم أخذ القرى ؛ بل جعل لهم موعدا آخر لا يخلفونه :

« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا . وجعلنا لمهلكهم موعدا » . .

فلا يغرنهم إمهال الله لهم ، فإن موعدهم بعد ذلك آت . وسنة الله لا تتخلف . والله لا يخلف الميعاد . .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ، فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ : آتِنَا غَدَاءَنَا ، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي

نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ،وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ : ذٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟ * قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ؟* قَالَ : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ : فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا .

« فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا . قَالَ : أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا : لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟ * قَالَ : لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا .

« فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ . قَالَ : أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟ * قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا .

« فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ . قَالَ: لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ : هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ . سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

« أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » .

هذه الحلقة من سيرة موسى — عليه السلام — لاتذكر فى القرآن كله إلا فى هذا الموضع من هذه السورة . والقرآن لا يحدد المكان الذى وقعت فيه إلا بأنه « مجمع البحرين » ولا يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى . هل كان ذلك وهو فى مصر قبل خروجه ببنى إسرائيل أم بعد خروجه بهم منها ؟ ومتى بعد الخروج : قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة ، أم بعد ما ذهب بهم إليها فوقفوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين ؟ أم بعد ذهابهم فى التيه مفرقين مبددين ؟

كذلك لا يذكر القرآن شيئا عن العبد الصالح الذى لقيه موسى . من هو ؟ ما اسمه ؟ هل هو نبي أو رسول ؟ أم عالم ؟ أم ولى ؟

وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس وعن غيره فى هذه القصة . ونحن نقف عند نصوص القصة فى القرآن . لنعيش « فى ظلال القرآن » ونعتقد أن لعرضها فى القرآن على النحو الذى عرضت به ، دون زيادة ، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء ، حكمة خاصة . فنقف نحن عند النص القرآنى نتملاه[1] . .

« وإذ قال موسى لفتاه : لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » . .

والأرجح — والله أعلم — أنه مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم . أى البحر الأبيض والبحر الأحمر . . ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر . وعلى أى فقد تركها القرآن مجملة فنكتفى بهذه الإشارة[2] .

ونفهم من سياق القصة فيما بعد — أنه كان لموسى — عليه السلام — هدف من رحلته هذه التى اعتزمها ، وأنه كان يقصد من ورائها أمرا ، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة ، ومهما يكن الزمن الذى ينفقه فى الوصول . وهو يعبر عن هذا التصميم بما

---

(١) أورد البخارى عند الكلام عن هذه القصة فى القرآن :

« حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد ابن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى ابن كعب — رضى الله عنه — أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى : يا رب وكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم » . .

(٢) ورد أن قتادة وغير واحد قال : هما بحر فارس مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى المغرب. وقال محمد ابن كعب القرظى : مجمع البحرين عند طنجة يعنى فى أقصى بلاد المغرب . . ونحن نستبعد القولين . .

حكاه القرآن من قوله: « أو أمضى حقبا » والحقب قيل عام ، وقيل ثمانون عاما ! على أية حال فهو تعبير عن التصميم ، لا عن المدة على وجه التحديد .

« فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هـذا نصبا . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . . » . .

والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشويا ، وأن إحياءه واتخاذه سبيله فى البحر سربا كان آية من آيات الله لموسى ، يعرف بهما موعده ، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله فى البحر، ولو كان يعنى أنه سقط منه فغاص فى البحر ما كان فى هذا عجب . ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية . فهذه إحداها .

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذى حدده ربه له للقاء عبده الصالح . وأنه هنالك عند الصخرة ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه :

« قال : ذلك ما كنا نبغ . فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . .

ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه ، فلم يطلع عليه فتاه حتى لقياه . ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح فى المشاهد التالية للقصة :

« قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟ » .

بهذا الأدب اللائق بنبى ، يستفهم ولا يجزم ، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم .

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشرى الواضح الأسباب القريب النتائج ، إنما هو جانب من العلم اللدنى بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذى أراده ، للحكمة التى أرادها . ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبيا رسولا . لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلى ، وبالأحكام الظاهرة ، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة ؛ وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار . لذلك يخشى العبد الصالح الذى أوتى العلم اللدنى على موسى ألا يصبر على صحبته وتصرفاته :

« قال : إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ » .

ويعزم موسى على الصبر والطاعة ، ويستعين الله ، ويقدم مشيئته :

« قال : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » . .

فيزيد الرجل توكيدا وبيانا ، ويذكر له شرط صحبته قبل بدء الرحلة ، وهو أن يصبر فلا يسأل ولا يستفسر عن شىء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها :

« قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ».

ويرضى موسى . . وإذا نحن أمام المشهد الأول لهما :

« فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها » . .

سفينة تحملهما وتحمل معهما ركابا ، وهم فى وسط اللجة ؟ ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة ! إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تعرض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدى بهم إلى هذا الشر ؟ فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر ؟

لقد نسى موسى ماقاله هو وماقاله صاحبه ، أمام هذا التصرف العجيب الذى لا مبرر له فى نظر المنطق العقلى ! والإنسان قد يتصور المعنى الكلى المجرد ، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملى لهذا المعنى والنموذج الواقعى منه يستشعر له وقعا غير التصور النظرى . فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد . وهاهو ذا موسى الذى نبه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبرا على مالم يحط به خبرا ، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة وبذل الوعد وقبل الشرط . هاهو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مستنكرا .

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته فى كل أدوار حياته . منذ أن وكز الرجل المصرى الذى رآه يقتتل مع الإسرائيلى فقتله فى اندفاعة من اندفاعاته . ثم أناب إلى ربه مستغفرا معتذرا حتى إذا كان اليوم الثانى ورأى الإسرائيلى يقتتل مع مصرى آخر ، هم بالآخر مرة أخرى[1] !

نعم إن طبيعة موسى هى هذه الطبيعة . ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء بوعده الذى قطعه أمام غرابتها . ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما غير التصور النظرى . ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها .

ومن هنا اندفع موسى مستنكرا :

« قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا » .

وفى صبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قاله منذ البداية :

« قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ » .

ويعتذر موسى بنسيانه ، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير :

« قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » . .

ويقبل الرجل اعتذاره ، فنجدنا أمام المشهد الثانى :

« فانطلقا . حتى إذا لقيا غلاما فقتله . . » .

---

(١) يراجع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها ؛ فهذه قتل نفس . قتل عمد لا مجرد احتمال . وهى قظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده :

« قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئا نكرا » .

فليس ناسيا فى هذه المرة ولا غافلا ؛ ولكنه قاصد . قاصد أن ينكر هذا النكر الذى لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسبابا ؛ والغلام فى نظره برىء . لم يرتكب مايوجب القتل ، بل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخذا على مايصدر منه .

ومرة أخرى يرده العبد الصالح إلى شرطه الذى شرط ووعده الذى وعد ، ويذكره بما قاله له أول مرة . والتجربة تصدقه بعد التجربة :

« قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معى صبرا » ..

وفى هذه المرة يعين أنه قال له : « ألم أقل لك ؟ » لك أنت على التعيين والتحديد . فلم تقتنع وطلبت الصحبة وقبلت الشرط .

ويعود موسى إلى نفسه ، ويجد أنه خالف عن وعده مرتين ، ونسى ماتعهد به بعد التذكير والتفكير . فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ، ويجعلها آخر فرصة أمامه :

« قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى . قد بلغت من لدنى عذرا » .

وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث :

« فانطلقا . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه » . .

إنهما جائعان ، وهما فى قرية أهلها بخلاء ، لا يطعمون جائعا ، ولا يستضيفون ضيفا . ثم يجد أن جدارا مائلا يهم أن ينقض . والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول : « يريد أن ينقض » فإذا الرجل الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل !!!

وهنا يشعر موسى بالتناقض فى الموقف . ماالذى يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جدارا يهم بالانقضاض فى قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان ، وقد أبوا أن يستضيفوهما ؟ أفلا أقل من أن يطلب عليه أجرا يأكلان منه ؟

« قال : لو شئت لاتخذت عليه أجرا » !

وكانت هى الفاصلة . فلم يعد لموسى من عذر ، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال :

« قال : هذا فراق بينى وبينك . سأنبئك بتأويل مالم تسطع عليه صبرا » [1] .

---

(١) إلى هنا ينتهى الجزء الخامس عشر ، ولكننا استطردنا فيه إلى نهاية القصة .

وإلى هنا كان موسى ـ ونحن الذين نتابع سياق القرآن ـ أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سرا . وموقفنا منها كموقف موسى . بل نحن لا نعرف من هو هذا الذى يتصرف تلك التصرفات العجيبة ، فلم ينبئنا القرآن باسمه ، تكملة للجو الغامض الذى يحيط بنا . وماقيمة اسمه ؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا ، التى لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة ، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة . فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التى يمثلها . وإن القوى الغيبية لتتحكم فى القصة منذ نشأتها . فهاهو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود . فيمضى فى طريقه ؛ ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة ، وكأنما نسيه ليعودا . فيجد هذا الرجل هناك . وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا فى وجهتهما ، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى .. كل الجو غامض مجهول ، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول فى سياق القرآن .

ثم يأخذ السر فى التجلى ..

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ؛ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا »

فبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصبا . وكان الضرر الصغير الذى أصابها اتقاء للضرر الكبير الذى يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها .

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » ..

فهذا الغلام الذى لا يبدو فى حاضره ومظهره أنه يستحق القتل ، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح ، فإذا هو فى طبيعته كافر طاغ ، تكمن فى نفسه بذور الكفر والطغيان ، وتزيد على الزمن بروزا وتحققا . فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه ، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه فى طريقه . فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذى يحمل طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلهما الله خلفا خيرا منه ، وأرحم بوالديه .

ولو كان الأمر موكولا إلى العلم البشرى الظاهر ، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام ، ولما كان له عليه من سلطان ، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعا . وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شىء من غيبه أن يحكم على الطبيعة الغيبية لفرد من الناس . ولا أن يرتب على هذا العلم حكما غير حكم الظاهر الذى تأخذ به الشريعة . ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد .

«وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ،

فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى . ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا » . .

فهذا الجدار الذى أتعب الرجل نفسه فى إقامته ، ولم يطلب عليه أجرا من أهل القرية — وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما — كان يخبىء تحته كنزا ، ويغيب وراءه مالا لغلامين يتيمين ضعيفين فى المدينة . ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه .. ولما كان أبوهما صالحا فقد نفعهما الله بصلاحه فى طفولتهما وضعفهما ، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته .

ثم ينفض الرجل يده من الأمر . فهى رحمة الله التى اقتضت هذا التصرف . وهو أمر الله لا أمره . فقد أطلعه على الغيب فى هذه المسألة وفيما قبلها ، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ماأطلعه عليه من غيبه « رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى » ..

فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف ، كما انكشف عن غيب الله الذى لا يطلع عليه أحدا إلا من ارتضى .

وفى دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفى الرجل من السياق كما بدا . لقد مضى فى المجهول كما خرج من المجهول . فالقصة تمثل الحكمة الكبرى . وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار . ثم تبقى مغيبة فى علم الله وراء الأستار .

***

وهكذا ترتبط — فى سياق السورة — قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله ، الذى يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر ، الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار . . .

انتهى الجزء الخامس عشر ، ويليه الجزء السادس عشر مبدوءا بقوله تعالى « أما السفينة ... »